89

هدية «القاهرة» ١٥ سبتمبر ٢٠٠٩

الملايين الأربعة

الجزء الثانى

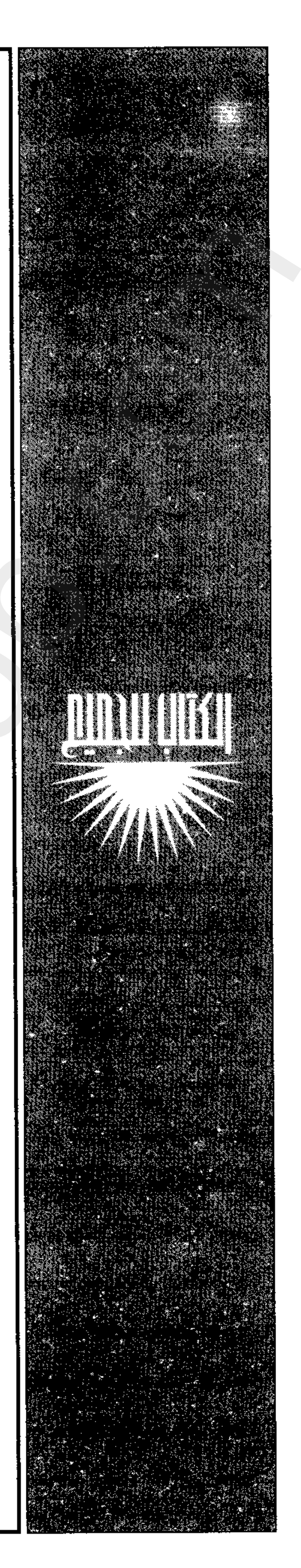
تأليف : او.هنرى

ترجمة : د.سعيد عبده

قصص أمريكية قصيرة


www.alkottob.com





■

رئيس مجلس الإدارة

فاروق عبد السلام

رئيس التحرير

صلاح عيسى

تصميم الغلاف: محمد الغول

■

جريدة اسبوعية ثقافية عامة

تصدر كل ثلاثاء عن وزارة الثقافة

الادارة والتحرير:

٩ شارع حسن صبري-الزمالك-

القاهرة.جمهورية مصر العربية

هاتف: ٢٧٣٧٣٠٤١ ٢

فاكس: ٢٧٣٧٣٠١٨

Email: alqaheranews@yahoo.com

سلسلة شعبية تعيد إصدارها
دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير
فخري كريم

الاشراف الفني
محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان - بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com





٨٨

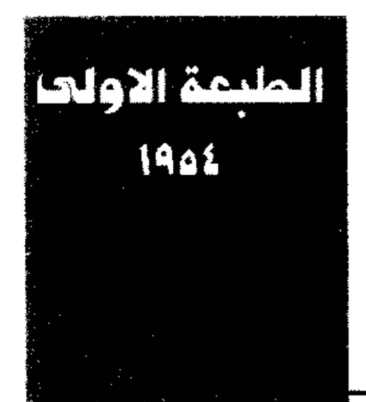
أو. هنري

الملايين الأربعة

الجزء الثانى

ترجمة : د. سعيد عبده

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٤





ربيع تحت الطلب

كان هذا في يوم من أيام مارس .

ولم توجد قط بداية لقصة أسوأ من هذه البداية ، فاياك اياك أن تبدأ قصة تكتبها بمثل هذا الاستهلال ، فانه استهلال مائع ، جاف ، مجرد من سبحات الخيال ، خليق ألا ينطوى على أكثر من الهواء . غير أنه في قصتنا هذه مسموح به ، فان الفقرة التالية التي كان يجب أن تكون فاتحة القصة ، من الاغراق في الغرابة ، واستحالة التصور ، بحيث لا يليق أن يواجه بها القارئ دون تمهيد!!

***

كانت سارة تبكي فوق البطاقة التي تعطيها الحق في الحصول على القوت! وتصور فتاة نيويوركية تسكب دموعها على قائمة طعام .

ولتعليل ذلك سيباح لك أن تفترض أن الجنبري نفد كله ، فبكت عليه ، أو أنها كانت نذرت الصوم عن المثلجات في الصيام الأكبر ، أو أنها طلبت بصلا فآذاها ، أو أنها قادمة من فورها من الحفلة النهارية في مسرح هاكيت . فأما وهذه الفروض كلها ضلال في ضلال ، فتفضل ودع القصة تجري في مجراها!

***

إن السيد الذي زعم الدنيا صدفة وأنه سيشقها بسيفه ، نال من الشهرة ما لم يستحق ، فان شق الصدفة بسيف أمر يسير . ولكن أعرفت يوما ما أحد افلق محارة المعمورة بآلة كاتبة ؟

لقد استطاعت سارة أن تفتح شقي المحارة بسلاحها هذا الكليل ، إلى الحد الذي أتاح لها أن تقضم من لحم الحياة الطيب الثاوي بداخلها قضمة . انها ما كانت تعرف عن الاختزال ، أكثر مما يعرف عنه خريج مدرسة تجارة

متوسطة أطلق على العالم لتوه ، ولعجزها هذا استحال عليها أن تقتحم ذلك الفلك الوضاء للكتاب الموهوبين ، وبقيت كاتبة غشيمة على الآلة الكاتبة ، تتصيد عملا من أعمال النسخ من هنا وعملا من هناك .

وكان الانتصار الأكبر الذي توج كل انتصارات سارا في نضالها مع الحياة هو الاتفاق الذي عقدته مع مطعم شولنبرج الصغير ، وكان هذا المطعم مجاوراً لبناء الآجر الاحمر الذي كانت غرفتها فيه . وقد حدث ذات ليلة بعد أن انتهت سارا من عشائها الرخيص بالمطعم أن حملت معها قائمة الطعام ، وكانت مكتوبة بخط يد لا يقرأ ولا يعرف منه ان كان مكتوبا بالانجليزية أو الألمانية ، ومن الفوضى في ترتيب ألوان الطعام بحيث إذا لم تكن حريصا فقد تبدأ من حيث لا تشعر بأعواد تسليك الأسنان ثم بالحلوى ثم تختم بالحساء وتاريخ اليوم الذي تأكل فيه من الأسبوع!!

وأخذ شولنبرج بجمال القائمة ، وقبل أن تبارح سارا المطعم تعاقد معها طائعاً مختاراً على أن تكتب له إحدى وعشرين قائمة عشاء ، بعدد موائد المطعم كل يوم ، ثم إحدى وعشرين قائمة فطور وغداء ، تتجدد كلما تغيرت ألوان الطعام ، أو استدعى تغييرها طول الاستعمال!

وفي مقابل ذلك كان على شولنبرج أن يرسل كل يوم ثلاث أكلات إلى حجرة سارا ، على يد خادم - يشترط أن يكون مهذبا ما أمكن - وأن يمدها كل أصيل بمسودة مكتوبة بالقلم الرصاص ، يبين عليها ما تختزنه المقادير لعملاء شولنبرج في اليوم التالي .

وقوبل الاتفاق بالرضى المشترك من الطرفين ، وكان من نتائجه أن قصاد شولنبرج أصبحوا يدركون اسم الطعام الذي يزدردونه حتى ولو غمض عليهم كنهه في بعض الأحيان ، وان سارا ضمنت قوتها خلال شتاء كئيب مرير ، وكان هذا أهم ما تصبو إليه .

ثم كذب التقويم ، وأعلن عن مقدم الربيع الذي لا يأتي إلا عندما يريد . لقد كانت ثلوج الشتاءما فتئت تجلل مسالك المدينة بطبقة من الجليد في صلابة الحجر ، وكانت الموسيقى اليدوية الجوالة ما زالت تعزف أنشودة «في الصيف الحلو الذي ولى» بنفس بهجتها وطلاوتها في قلب الشتاء . وراح الرجال يوصون على ثياب عيد الفصح بمهلة أيام ثلاثين ، وبدأ

القوامون على المنازل يوقفون البخار في المدافئ . وعندما تحدث هذه الأشياء ، فقد يدرك المرء أن المدينة مازالت تئن تحت سنابك الشتاء!

وحدث ذات أصيل أن أحست سارا قشعريرة البرد في حجرتها ذات التدفئة المحلية ، والنظافة المثلى ، والمرافق الكاملة . . وما راء كمن سمع! وما كان لديها عمل تعمله خلا بطاقات شولنبرج ، فجلست في كرسيها الهزاز الصارخ ، وراحت تنظر من النافذة ، والتقويم المعلق على الحائط يهتف بها دائبا : «الربيع هنا يا سارا ، أؤكد لك أن الربيع على الأبواب . أنظري إلي ترى صوري قد اصطبغت بألوان الربيع ، وأن لك أنت صورة حلوة يا سارا ، صورة خلابة كأطياف الربيع ، فلماذا تنظرين إلى النافذة بهذا الوجه الحزين ؟»

كانت غرفة سارا في مؤخرة البيت ، وكانت نظرتها من النافذة تقع على الجدار الأصم الذي يكون ظهر مصنع الصناديق الواقع على الشارع المتاخم ، ولكن الجدار كان مصنوعاً من البلور الصافي ، ووقعت عينها على ممشى مغطى بالحشائش ، ومظلل بأشجار الكريز والتوت والورود .

إن بشائر الربيع الحقيقية شديدة الختل للعيون والآذان ، فمن الناس من لا يفتح أحضانه ليعانق الربيع المقبل إلا إذا رأى أزهارا بعينها تتفتح ، أو أشجارا بذاتها تورق ، أو طيورا خاصة تغرد ، أو ألوانا معينة من الطعام تنسحب مودعة من الوجود – ويا له من نذير – فإن الأرض التي تعرس للربيع كل عام تتلقى من الزوج المنتظر رسالة رقيقة ، يعلن فيها أن بنى العلات[١] لا مكان لهم في البيت الجديد ، إلا أن يختاروا هم أنفسهم البقاء فيه!

وكانت سارا في الصيف الماضي قد ذهبت إلى الريف وأحبت فلاحا هناك .

(وإياك وأنت تكتب قصتك أن تنكص هكذا على عقبيك ، فإن في ذلك مساءة للفن ومضيعة للتشويق ، ولكن دع القصة تسير في انسجام ، إلى الأمام!)

ومكثت سارا أسبوعين في مزرعة سنى بروك ، تعلمت خلالهما كيف تغرم بوولتر ابن فرانكلين الفلاح العجوز . ولقد عرف عن الفلاح من قديم

---

١ – العلة الضرة، وبنو العلات بنو أمهات شتى من رجل واحد.

أنه يحب ويتزوج ويستحيل إلى مداس في وقت أقصر ، ولكن وولتر فرانكلين الشاب كان زراعياً حديثا ، له في حظيرة بقره تليفون ، ويستطيع أن يتكهن بغاية الدقة عن مدى تأثير محصول القمح القادم بكندا في محصوله هو من البطاطس المزروعة والقمر في المحاق .

ولقد غازلها وولتر وسبى فؤادها في ذلك الممشى المظلل بأشجار الكريز ، حيث جلسا معا يضفران لشعرها أكليلا من الهندباء ، وهو يتغزل بسخاء في موقع زهره الاصفر من جدائلها العسلية ، وقد تركت الاكليل هناك وعادت إلى البيت ترقص دميتها على يديها!

وكانا على أن يتزوجا في الربيع ، عند أول باكورة من بواكيره كما قال وولتر ، وعادت سارا من المزرعة لتطقطق على آلتها الكاتبة!

وسمعت نقرة على الباب بعثرت في خيال سارا أحلام ذلك اليوم السعيد ، فقد جاء خادم من خدم المطعم بمسودة قائمة اليوم التالي في مطعم شولنبرج . . .

وجلست سارا إلى العمل ، ووضعت ورقة بين شقي الجهاز ، وكانت خفيفة الحركة في عملها ، تنتهي عادة من كتابة القوائم الاحدى والعشرين في ساعة ونصف!

ولكنها اليوم وجدت تحويراً في قوائم الطعام أكثر من المعتاد ، فقد كانت أنواع الحساء أقل ، وحذف لحم الخنزير ، واستعيض عنه باللفت على الطريقة الروسية وبدا أن روح الربيع الحلوة تدب على أعطاف القائمة ، فاختلط لحم الضأن[١] الذي كان يطفر منذ قليل على المروج الخضراء ، بالصلصة التي أحيت ذكرى طفراته هناك ، وعلى أن الجنبري لم يخرس ، فإن صوته خفت ، وتخلفت المقلاة في كسل وراء الأسياخ الطيبة للمشواة[٢] ، وتضخم نصيب الفطائر واختفت الحلواء ، واختال المبار في الأطباق .

وتراقصت أصابع سارا على الأحرف ، تراقص الطير على صفحة غدير ، وما زالت تنتقل من لون إلى لون من أصناف الطعام ، واضعة كلا منها بدقة في موضعه الصحيح من حيث الطول والقصر .

---

١ - يعتبر لحم الضأن في أمريكا من أرخص وأردأ أنواع اللحوم.

٢ - عندما يدفأ الجو نوعاً لا تكون الحاجة إلى قلي اللحوم في الدهن شديدة كما كانت في الشتاء.

وقبل أن تصل إلى الحلوى أتت على الخضر من الجزر والبازلاء إلى الاسباراجاس بالخبز القديد ، إلى الطماطم في غير الأوان ، والفريك ، والفوك ، والكرنب ثم . . .

إن سارا كانت تبكي الآن على قائمة الطعام ، فقد انبثقت من أعماق قلبها اليائس عبرات تجمعت في عينيها ، وتهاوى رأسها على قائم الآلة الكاتبة ، واستجابت الأحرف بطقطقتها الجافة لتنهداتها الرطاب .

فهي منذ أسبوعين لم تتلق من وولتر رسائل ، وكانت الهندباء بالبيض هي الصنف التالي من أصناف الطعام ، ولا عليك من البيض الآن ، فإن الهندباء هي التي ضفر وولتر من زهورها الذهبية الاكليل الذي جعلها به ملكة فؤاده ، وعروسه المستقبلة ، وهي بشائر الربيع التي أصبحت تاج أحزانها وتذكار أسعد أيامها الخوالي .

***

أيتها السيدة القارئة : اضحكي ما شئت إلى أن تكابدي هذا الامتحان! دعي الورد الذي أهداه إليك خطيبك يوم وهب لك حبه ، يقدم إليك « سلطة » تحت سمعك وبصرك في مطعم كمطعم شولنبرج الوضيع . إن جولييت لو رأت شارات حبها تبتذل على هذه الصورة لاستعجلت الحصول على السم من تاجر عقاقيرها الطيب .

ولكن يا له من ساحر ذلك الربيع . .!

إن رسالة ما يجب أن ترسل إلى قلب المدينة المدرع بالحجر والحديد ، ولكن ما من رسول يحملها سوى هذا الرسول الباسل الصغير النابت في الحقول ، بمعطفه الأخضر وأريجه الهادئ . إنه جندي من جنود الأقدار ذلك الزهر المسمى بأسنان الأسد (الهندباء) ، فهو عندما يزهر يصبح على رؤوس العذارى دلال غرام ، وهو قبل أن يزهر يمكن أن يصبح في طبق الطعام سفيرا للهوى بين المحبين .

***

وما هو إلا قليل حتى كفكفت سارا دموعها قسرا ، فان البطاقات يجب أن تكتب على أي حال ، بيد أن خيالها كان لا يزال سابحا في أحلام الهندباء ، وهي تدق على الأحرف بلا وعي لحظة من الزمان ، تاركة قلبها

وعقلها يتجولان في المروج مع حبيبها الفلاح . ولكن سرعان ما جرفها الواقع على عجل إلى صخور مانهاتان ، وراحت أحرف الآلة تطقطق وتتواثب كسيارة قديمة!

وأتى لها الخادم بعشائها في السادسة ، وأخذ منها قوائم الطعام . وبعد أن أكلت سارا تنهدت وهي تنحى جانبا طبق الهندباء بما فيه . وكما استحالت هذه الكتلة السوداء من الزهور اليانعة الممهورة بالحب إلى طبق مشين من الخضر المأكولة ، ذوت كذلك آمال الصيف في قلبها ، وذهبت هباء ، وعلى أن الهوى كما يقول شكسبير قد يأكل بعضه بعضا ، فإن سارا لم يطاوعها قلبها على أن تأكل الهندباء التي وشت يوما ما أول وليمة غرام حقيقية دعى إليها قلبها الكسير!

وفي الساعة السابعة والنصف بدأ جاراها الزوجان يتعاركان ، وأخذ الساكن الذي فوقها يعزف أعلى صوت على الناي ، وخبت بعض الشيء قوة النور ، وراحت ثلاث عربات من عربات الفحم تلقى شحنتها على الباب بصوت هو الصوت الوحيد الذي يغار منه الحاكي ، وارتفع مواء القطط على الأسوار الخلفية للبناء ، وأدركت سارا من كل هذه الآيات أن وقت القراءة قد أزف ، فانتقت كتابا كان أقل كتب الشهر انتشارا ، وأسندت قدميها إلى حقيبتها ، وراحت تسرح مع المؤلف .

ودق جرس الباب الخارجي ، وفتحته قيمة البيت ، وتركت سارا الكتاب وأنصتت ، وكذلك كنت تفعل لو كنت في مكانها .

وسمع من الردهة السفلى صوت قوى ، فقفزت سارا إلى الباب تاركة كتابها على الأرض .

ولعلك تكهنت بما حدث ، فقد وصلت إلى بسطة السلم العليا في نفس اللحظة التي وصلها فيها فلاحها الحبيب صاعدا السلم ثلاثا ثلاثا ، وألفت نفسها بين أحضانه .

وصاحت سارا :

– لماذا لم تكتب ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

قال وولتر :

– إن نيويورك مدينة ضخمة ، وقد أتيت إليك في عنوانك القديم منذ

أسبوع ، فوجدتك قد انتقلت منه في يوم الخميس . وعزاني هذا بعض الشيء ، فقد وقاني من الشك المحتمل في نحس أيام الجمع ، وان كان لم يمنعني من البحث عنك بكل الوسائل الممكنة منذ ذلك اليوم ، حتى بوساطة الشرطة .

قالت سارا بحدة :

– لقد كتبت لك . .

– لم يصلني شيء قط . .

– فكيف وجدتني إذن ؟

وتبسم الفلاح الشاب ابتسامة مصطبغة بألوان الربيع ، ثم قال :

– لقد وقعت الليلة عفوا على المطعم الصغير المجاور ، وما يهمني أن يعرف ذلك عني أحد ، فاني أحب نوعا معينا من الخضر في هذا الموسم من العام ، فأجريت عيني على قائمة الطعام الجميلة باحثا عنه ، فلم أكد أنتقل من الكرنب حتى قلبت مقعدي وأنا أنادي على صاحب المطعم ، وقد أخبرني أين تسكنين .

قالت سارا في بشر :

– أجل . أتذكر أن الكرنب أعقبته الهندباء ؟

قال وولتر :

– إن الواو التي يكتبها جهازك مرتفعة على السطر تدلني عليك أينما كنت من أقطار العالم ؟

فقالت سارا مندهشة :

– ولكن أين الواو في كلمة الهندباء ؟

فأخرج الشاب القائمة من جيبه ، وأشار إلى سطر فيها . . .

وعرفت سارا في البطاقة أول قائمة كتبتها في ذلك الأصيل . . فقد كان أثر العبرة التي سالت على ركنها الأيمن ما زال ظاهراً هناك . ولكن حيث كان ينبغي أن يظهر اسم الهندباء ، فان الذكرى المراودة لزهورها الذهبية جعلت أناملها تقع من اللوحة على أحرف غريبة في مجموعها على قائمة الطعام .

فبين الكرنب ، ومحشى الفلفل الأخضر ، ظهرت في القائمة هذه الكلمات : « حبيبي وولتر بالبيض المسلوق! »

إضاعة الأناقة

كان مستر تاورز تشاندلر يكوي بدلة سهرته في غرفته المتواضعة ، واضعاً مكواة تسخن على نار الموقد الغازي ، ومتكئا على الأخرى بقوة وهي تروح وتجيء على البنطلون ، لتحدث فيه الثنية التي سنراها فيما بعد بين حذائه وصداره كالخط المستقيم . . ولن نخوض أكثر من ذلك في زينة المستر تشاندلر ، ولن نراه بعد ذلك إلا وهو يهبط درج السلم في البيت الذي يسكنه ، هادئاً ، أنيقاً ، واثقاً بنفسه ، منسجم الهندام ، يوحي مظهره بأنه شاب نيويوركي من رواد الأندية ، يبدأ مباهجه الليلية في قليل من الضجر .

كان مرتب تشاندلر في الأسبوع ثمانية عشر ريالا ، وكان يعمل في مكتب مهندس معماري ، وكان في الثانية والعشرين من العمر ، وله رأي في المعمار أنه فن خالص ، وأن هندسة الكاتدرائية الكبرى في ميلان أسمى وأروع من هندسة ناطحات السحاب في نيويورك ، ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يجاهر بذلك .

وكان تشاندلر يدخر من دخله ريالا كل أسبوع ، فيتجمع لديه كل عشرة أسابيع رصيد ، يشتري به ليلة ممتعة من تاجر الزمن الشحيح ، فيرتدي من الحل ما يرتديه النبلاء وأصحاب الملايين ، ويرتاد من الاحياء ما تتبرج فيه الحياة وتتألق ، حيث يتعشى كما يتعشى المترفون ، وأن المرء ليستطيع بعشرة ريالات أن يمثل دور العاطل الثري ولو لبضع ساعات ، فإن المبلغ يتسع لاكلة شهية ، ولزجاجة شراب طيب ، ولمنحة الندل ، وللسيجار ، والعربة ، وما يتبع ذلك من الملحقات .

وكان هذا المساء البهيج المقتطف من شقاء سبعين ليلة ، مصدر سعادة تتجدد لتشاندلر على الدوام . إن كل زهرة من زهور المجتمع تتفتح مرة

واحـدة ، وهذا الازدهار الواحـد تظل ذكـراه الحلوة ناضرة في خيـالهـا حـتى يدركـهـا المشـيب ، ولكن تشـانـدلر كانت له كل عشـرة أسابيع فـرحـة ، لهـا جدة الفرحة الأولى ونشـوتهـا ، وأي شيء أبهج في الحيـاة من أن تجلس بين السعداء ، تحت النخيل ، مغرقاً في دوامة من الموسيقى الشجية ، يتطلع إليك نزلاء هذا الفردوس كما كنت تتطلع إليهم ؟ إن سعادة الفتاة بقبلتها الأولى ، وبثوب زفافها الناصع ، هيهات أن تضارع هذه السعادة .

وتلجـه تشـانـدلر صـوب برودواى في هذه المظاهرة من الأنـاقة وجمـال الهندام ، فالليلة ليلته في نظر الناس إليه كما كان ينظرُ إليهم ، وستعقبها تسع وستون ليلة ، يرتدي فيها الثوب الرخيص ، ويتعشى حيثما اتفق ، ويقف في غمرة الزحام ليحصل على غداء ، ويقتات في بيته المتواضع على الجعة والشطائر . وما كان يكره ذلك ، فقد كان ابنا مخلصاً لفوضى المدينة الكبرى ، وكانت الليلة التي يقضيها في الضوء تغنيه عن لياليه الطويلة في الظلام .

واتأد تشاندلر في مشيته حتى أتى الاحياء الساطعة في المدينة ، لأن الليل كان في بدايته ، ولأن المرء إذا كانت لا تتاح له السعادة إلا ليلة كل سبعين ليلة ، كان حريا أن يؤجل متعته ما استطاع . وراحت الأعين تنتاشه ما بين براقة ، وشريرة ، ومستطلعة ، ومعجبة ، ومغرية ، وفاتنة ، لأن ثيابه وهندامه نما عليه كمستسلم لنوازع المتعة والسرور .

وأتى ناصيـة من نواصي الطريق وقف عندها بغتة ، يفكر في أن يعود القهقرى إلى مطعم أنيق فخم سبق له أن تعشى فيه في بعض أعياده الماضية ، وحدث في نفس اللحظة ، أن ظهرت فتاة من ركن الطريق ، فزلت قدمها على قطعة من الجليد ، فخرت هاوية على الطوار .

ونفر تشاندلر لنجدتها في جزع واحترام حتى أعانها على الوقوف ، ومشت الفتاة تظلع حتى أتت الجدار فاستندت إليه ، وشكرته في احتشام ، ثم قالت :

- « أظن كعبي قد حدث به رض ، فقد التوى وأنا أقع » .

وتساءل تشاندلر :

- « هل يوجعك كثيرا ؟ »

فقالت :

« كلا إلا إذا ركزت ثقلي عليه ، وأحسبني قادرة على استئناف المشي في دقيقة أو دقيقتين »

وقال الشاب :

« هل من خدمة أستطيع أن أؤديها ؟ هل أنادي عربة أو . . . »

قالت الفتاة في لطف وحرارة :

« شكراً ، ولا داعي لهذا التعب ، لقد كان ما كان سخفاً مني ، فإن أعقاب حذائي أوطأ ما تكون ، ولا أستطيع لومها على ما كان »

ونظر تشاندلر إلى الفتاة ، فارتد إليه البصر وهو مشوق ، فقد كانت على جمال مهذب ، وكانت عينها تشع بالرفق والحبور ، وكانت ترتدي ثوباً بسيطاً أسود ، من النوع الذي ترتديه العاملات ، وقبعة رخيصة من القش الأسود ، ليس عليها من أثر الزينة إلا شريط معقود من المخمل ، تبدو من تحتها غدائر شعرها العسلي اللماع . وكأنها مثل طيب لعاملة تحترم نفسها بوجه عام .

ونبتت فكرة مفاجئة في خاطر المعماري الشاب . ماذا لو سأل هذه الفتاة أن تشاطره العشاء ؟ إنها عنصر كان ينقص أعياده الدورية الفخمة . وما من شك أن صحبة سيدة ، ستضاعف متعته ببهجة هذه الأعياد القصار . وهذه الفتاة سيدة ولا ريب ، ينم على جوهرها سلوكها وأسلوبها في الحديث . وقد أيقن أنه على الرغم من بساطة ثيابها سيستمتع بمشاطرتها اياه العشاء .

مرت هذه الخواطر بفكره في لمحة ، فقرر أن يدعوها ، وكان ذلك بالبداهة خرقا للتقاليد ، ولكن العاملة التي تحصل على قوتها من عرق الجبين خليقة أن تتغاضى أحياناً عن صوت التقاليد في مثل هذه الأمور . إنهن في العادة ذكيات في حكمهن على الرجال ، وقد نلن بحكومتهن هذه من الخير ما لم ينلن بالتقاليد العقيمة . والعشرة الدولارات التي معه إذا أنفقها بحكمة يمكن أن تكفل عشاء طيباً لاثنين . وسيكون هذا العشاء لا محالة تجربة جديدة باهرة للفتاة في حياتها الخاملة ، وسيضاعف من ظفره ومتعته ، تقديرها العظيم لما أسبغ عليها من آلاء .

وقال لها في وقار :

- « أظن قدمك ستحتاج إلى راحة أطول مما تقدرين . وهأنذا أعرض عليك حلاً يكفل لها ذلك ، ويوليني منك فضلاً في نفس الوقت . لقد كنت في طريقي إلى العشاء وحيداً ، عندما عثرت قدمك على ركن الطريق ، فتعالي معي نتعش سوياً ، عشاء شهياً ، ونتجاذب أطراف الحديث حتى يزول عن كعبك ما يضنيه » .

ونظرت الفتاة نظرة خاطفة إلى وجه تشاندلر السمح اللطيف ، فبرقت في عينها بارقة ، وشاعت في ثغرها ابتسامة صريحة ، ثم قالت مستريبة :

- « ولكننا لم نكد نتعارف ، وما أظن ذلك من الحكمة ، أترى أنت غير ذلك ؟ »

قال الشاب في حماسة :

- « لا حرج البتة ، ودعيني أقدم لك نفسي : مستر تاورز تشاندلر . وإذا فرغنا من عشائنا الذي سأحاول جهدي أن أجعله ممتعاً ، سأتمنى لك ليلة سعيدة ، أو أصحبك إلى بابك ، أيهما تختارين ؟ »

وقالت الفتاة وهي تلقي نظرة على ثياب تشاندلر المبرأة من العيب :

- « ولكن ماذا أصنع بهذه القبعة والثوب القديم ؟ »

قال تشاندلر في ابتهاج :

- « لا عليك من ذلك ، واني لأجزم أنك فيهما أفتن من أي امرأة نلقاها من أبهى ما أعدت لسهرتها من زينة »

وقالت الفتاة وهي تتعارج :

- « إن كعبي مازال يؤلمني ، وسأقبل دعوتك ، وتستطيع أن تناديني : مس ماريان » .

وقال المعماري الشاب في فرح وقور :

« إذن فهيا بنا يا مس ماريان ، ولن تمشي طويلاً ، ففي المبنى التالي مطعم فاخر محترم ، واعتمدي على ذراعي ، أجل هكذا ، واتئدى في خطاك . إن عشاء المرء وهو وحيد مدعاة للضجر ، واني لسعيد نوعاً ما - بتعثرك في قطعة الجليد » .

وعندما استقر الاثنان على مائدة مختارة ، تحوم عليها نادلة واعدة ، بدأ

تشانزلر يحس نشوة الفرح الأصيل ، الذي تمده به أعياده المنتظمة على الدوام .

ولم يكن المطعم في أناقة أو فخامة ذلك المطعم الذي كان يختاره لأعياده في برودواى ، ولكنه مع ذلك لم يكن أدنى منه كثيراً ، فقد كانت الموائد عامرة بآكلين يرفلون في ثياب العز ، والموسيقى شجية لا تعكر بهدوئها متعة الحديث ، والطهي والخدمة فوق النقد والتشبيهات . وصاحبته - حتى في ثوبها وقبعتها الرخيصين - تبدو في مظهر ممتاز ، يضاعف ما تسم به وجهها وسمتها من جمال أصيل . ومن المؤكد أنها كانت تنظر إلى تشاندلر ، في مرحه المشرب بضبط النفس ، وفي عيونه الصريحة ، الزرقاء ، نظرة تداني نظرة الاعجاب ، تشيع في وجهها الفاتن الخلاب .

وسيطرت نشوة الغرور والفرح على فؤاد تشاندلر ، في هذا الجو المغرق في الفخامة والانس ، وتطلع الاعين الجميلة إليه ، فراودته نفسه أن يمثل على مسرح هذه المهزلة - ولو لليلة واحدة - دور الثري العاطل المفتون ، وأعانته ثيابه على تمثيله ، وعجز كل حراسه من الملائكة الأبرار أن يثنوه عن تمثيل هذا الدور .

وراح يثرثر لمس ماريان عن الأندية ، وحفلات الشاي ، وملاعب الجولف ، وحلبات السباق ، وحظائر الكلاب ، وبهجة المراقص ، ومغاني السياحة في العالم ، ويشير من طرف خفي ، إلى وجود يخت ينتظره في الميناء . ورآها تستغرق في الانصات لحديثه الغامض ، فألح في تزييف الأكاذيب عن ثروته ، وراح يذكر بلا كلفة أسماء بعض أصحاب رؤوس الأموال المعروفين بين سواد العمال . لقد كان اليوم لتشاندلر يوم عيد ، وقد صمم على أن يعتصر منه كل قطرة من الرحيق . ومع ذلك فقد لمح مرة أو مرتين بريق تبر الذهب الحر في وجه هذه الفتاة ، يتألق خلال الضباب الذي حجبت به أنانيته وغروره عن نظره كل شيء .

- « ألا ترى أن هذه الحياة التي تتحدث عنها لا نفع فيها ، ولا ترجى من ورائها غاية ؟ أما لك من عمل تؤديه في الحياة يمنحك سرورا أكبر ؟ »

فصاح متعجبا :

- « عمل ؟ يا عزيزتي مس ماريان ، أي عمل أشق من ارتداء ملابس

السهرة كل مساء ، والقيام بست زيارات كل أصيل ، ووقوع شرطي المرور على سيارتك في كل مفرق طريق ، ليأخذك إلى المحكمة ، إذا أنت تجاوزت سرعة حمار يجر عربة!! اننا نحن العاطلين ، نقوم بأشق عمل في هذا البلد » .

وانتهى العشاء ، وأعطيت النادلة منحة كريمة ، وعاد الاثنان إلى حيث التقيا في ناصية الطريق ، وكانت مس ماريان تجيد مشيتها الآن ، لا يكاد عرجها يبين ، وقالت مخلصة :

- « أشكرك على ما أتحت لي من ساعات لطيفة ، فعلي أن أعود إلى بيتي الآن ، ولقد سعدت كثيراً بهذا العشاء يا مستر تشاندلر »

وصافحها وعلى فمه ابتسامة وقور ، وأشار إلى أنه ذاهب إلى مباراة بريدج في ناديه ، وراح يرقبها لحظة وهي منصرفة عنه في خطو سريع ، ثم ركب عربة تعود به إلى البيت .

وفي غرفته الباردة خلع تشاندلر ملابس السهرة ، ومنحها إجازة التسعة والستين يوماً المعتادة ، وراح يفكر في ليلته ويحدث نفسه فيقول :

- « يا لها من فتاة مدهشة ، وانها لمهذبة كذلك ، ويحزنني أن أراها تعمل لتعيش ، ولعلني لو قلت لها الحق عن نفسي بدلاً من هذه الأكاذيب لكنا . . ولكن سحقاً لذلك ، لقد كان علي أن أمثل الدور الذي يتطلبه ما أرتدي من الثياب » .

وكذلك حدث نفسه ذلك الرجل الشجاع ، الذي ولد وترعرع في أحضان مانهاتان .

أما الفتاة فانها لم تكد تغادر صاحبها حتى سارت مسرعة إلى قصر هادئ فخم في الحي المواجه لاله المال ومن ورائه الآلهة المساعدين ، فاقتحمت بابه على عجل ، وصعدت إلى غرفة بها فتاة رشيقة ، ترتدي معطفاً بيتياً جميلاً ، وتنظر في قلق من النافذة إلى عرض الطريق .

وصاحت هذه الفتاة الأكبر سناً عندما رأت الأخرى تدخل الغرفة :

- « أين كنت أيتها الطائشة ؟ متى تكفين عن ترويعنا على هذا المنوال ؟ ان لك ساعتين منذ تسربت من البيت بقبعة ماري وثوبك القديم . وقد جزعت لذلك أمنا جزعاً شديد ، وأرسلت السائق بالسيارة ليبحث

عنك . . . انك لشريرة حمقاء بلا عقل ولا تفكير! » .

ودقت الفتاة الكبرى جرساً ، فأتت خادم في لحظة ، فقالت لها :

– « ماري قولي لأمي أن ماريان قد عادت » .

وقالت الصغرى :

– « لا تقسي علي يا أختي ، لقد ذهبت إلى الخياطة لأطلب منها أن تبدل الوشي الوردي بآخر بنفسجي ، ولم أكن بحاجة إلى ثياب أكثر من قبعة ماري وهذا الثوب القديم ، وقد حسبني كل من رآني عاملة في متجر على ما أظن »

– « لقد فاتك العشاء يا عزيزتي » .

– « أعرف ذلك ، فقد عثرت في الطريق ، والتوى كعبي ، فشق علي السير ، فطلعت إلى مطعم قريب ، وجلست هناك أستريح ، ومن أجل ذلك تأخرت » .

وجلست الاختان على كنبة بجوار النافذة تنظران إلى أنوار الطريق ، وسيل العربات المتدفق فيه ، ودفنت الصغرى رأسها في حجر أختها ، وقالت وكأنها في غيابة حلم :

– « سنتزوج يوماً ما بطبيعة الحال ، وان لدينا من المال ما يحول بيننا وبين مضايقة الناس! أقول لك أي نمط من الرجال أصبو إليه يا أختاه ؟ »

وقالت الأخرى ضاحكة :

– « افعلي أيتها الخرقاء » .

– إن الرجل الذي أصبو إليه يجب أن تكون له عيون عطوف زرقاء ، وأن يعامل الفتيات الفقيرات برقة واحترام ، وأن يكون أنيقاً ، وطيباً يعف عن الغزل والتشبيب . ولكنني لن أحبه إلا إذا كان له هدف وعمل ومطمح في الحياة . وما يهمني أن يكون أفقر ما يكون ، ما دمت أستطيع أن آخذ بيده في معراج المعالي . ولكن الرجل الذي نلتقي به يا أختاه هو دائماً الرجل الثري العاطل الذي يحيي حياة خاملة بين الأندية والمحافل ، ولن يتفتح قلبي لمثل هذا الرجل حتى لو كانت عيونه زرقاء ، وكان أرق ما يكون لمن يصادفهن في الطريق من الفتيات والفقيرات » .

عالمي في مقهى

كان المقهى مكتظاً في منتصف الليل ، وشاءت مصادفة ما أن تخفى المائدة التي كنت أجلس إليها عن أعين الداخلين ، فبقي عليها مقعدان خاليان ، يمدان أذرعهما في حفاوة مريبة إلى سيل العملاء .

وما هو إلا قليل حتى اقتعد أحدهما مواطن عالمي ، فطربت لذلك ، لأني كنت أعتقد أن الأرض لم تعرف مواطنا عالميا اصيلاً منذ آدم وحواء . إننا نسمع بهم ونرى بطاقات أجنبية على أمتعة كثيرة ، ولكننا نجد سياحا لا مواطنين عالميين .

وها هو ذا منظر المقهى أطرحه تحت أنظاركم : الموائد ذات القمم الرخامية ، صفوف المقاعد المكسوة بالجلد والملتصقة بالجدران ، الجماعة المرحة ، السيدات في أزيائهن نصف المتأنقة ، يتكلمن في جلبة ملحوظة عن الذوق أو الاقتصاد أو الثراء أو الفنون ، الندل في دؤوبهم وغرامهم بجمع الهبات ، الموسيقى التي توزع البهجة بعدالة بين الجميع ، من سطواتها على المؤلفين ، مزيج الأحاديث والضحكات - وان شئتم فالجعة السمراء في كؤوسها المخروطية المائلة على الشفاه ، كالكريز اليانع مهتزاً على الأغصان أمام منقار الطائر المتلصص . ولقد قال لي أحد المثالين أن المنظر كله كان باريسيا بحق .

كان اسم هذا المواطن العالمي أ . رشمور كوجلان ، وستراه مدينة الملاهي في الصيف المقبل (وان لم يذهب) فقد أسر إلى أنه يزمع انشاء لعبة جديدة هناك تصلح لتسلية الملوك ، ثم راح بعد ذلك يقرع بسنابك حديثه خطوط الطول والعرض من شرق العالم إلى غربه ، وكأنما وضع كرة الأرض الضخمة في راحة يده ، ببساطة واستصغار ، حتى بدت فيها أصغر من بذرة كريز صغيرة في كأس عظيمة من عصير البرتقال .

وتحدث عن خط الاستواء بلا كلفة ، وأخذ يثب من قارة إلى قارة ، ويسخر من الأقاليم ، ويجفف بفوطة يده المحيطات . وقد يتحدث إليك مطوحا بيده عن سوق معينة في حيدر آباد ، ثم هوب! ترى نفسك محمولا معه على زلاجة في لايلند بشمال النرويج ، ثم إذا بك فو! . . . راكبا معه أعراف الموج المزبد المتكسر على سواحل هاواي . ثم إذا هو يجرك وراءه في مستنقع من مستنقعات اركنساس ، تاركا اياك لحظة تجفف نفسك على السهول الملحية في مزرعته بولاية ايداهو ، ثم لا يلبث أن يرف بك إلى مجمتع النبلاء في فيينا ، ثم لا يفتأ حتى يخبرك عن برد أصابه في شيكاغو من نسيم بحيرة ميشجان ، وكيف أن اسكاميلا العجوز من سكان بونس ايرس شفته بمنقوع عشبة الشوشولا الساخن . وقد تستطيع في كلمة أن تعنون رسالة بهذا الاسم ا . رشمور كوجلان المحترم . . بالكرة الأرضية ، بالمجموعة الشمسية . . الكون ، ثم تضعها في البريد ، وأنت واثق تمام الثقة أن الكتاب واصل إليه لا محالة .

وأيقنت أني وقعت في النهاية على المواطن العالمي الأصيل منذ آدم ، وأصغيت إلى حديثه الطاوي للعالم بأسره ، مشفقاً أن أعثر فيه على لمحة وطنية محلية لمجرد شخص جواب آفاق ، ولكن آراءه لم تختلج ولم تهن قط ، وتنزهت عن التحيز للمدن والأمم والقارات ، شأنها شأن الريح والجاذبية الأرضية سواء بسواء .

وبينما أ . رشمور كوجلان يثرثر عن كوكبه الصغير ، رحت أفكر بفرح في رجل آخر كاد يكون مواطنا عالميا عظيما ، كتب للعالم أجمع ، وأهدى ما كتب إلى بومباي[١] وقال من قصيدة له : « إن ثمة تفاخراً وتنافساً بين مدن الأرض بعضها وبعض ، وان من بين أبنائها من يذرع العالم شمالاً وجنوباً ، ولكنه يتعلق بمسقط رأسه كما يتعلق الطفل بذيل أمه ، وإذا ما مشى في الشوارع الصاخبة المجهولة تذكر وطنه ، بإخلاص وحمق وحنين ، واتخذ من مجرد اللفظ باسمه غلا جديدا يضيفه إلى ما يربطه به من أغلال » وزاد من سروري اني ضبطت كبلنج

١ - يعني الشاعر الانجليزي رديارد كبلنج.

الجديد مغفيا في سنة من النوم . فقلت لنفسي لقد عثرت برجل ليس مخلوقا من التراب ، رجل لا يزهو ذلك الزهو الأخرق بمسقط رأس أو وطن ، رجل إذا تفاخر - وهيهات - فإنما يفاخر بكرة الأرض سكان القمر وأهل المريخ!!

وإذا كانت هذه الأمور في حاجة إلى توضيح فقد قام بهذا التوضيح أ . رشمور كوجلان بايعاز من شخص إلى آخر شغل المقعد الثالث في مائدتنا ، وسيأتي ذكره بعد قليل . وبينما كان كوجلان يصف لي التخطيط المفصل للبقعة من الأرض التي تمر فيها سكة حديد سيبريا ، كانت الموسيقى تصدح بخليط من الألحان ، وكان ختامها لحن « ديكسى » وهو نشيد وطني ثوري معروف في الجنوب ، فلم تكد أنغامه تقرع الأسماع حتى طغت عليها عاصفة من التصفيق هبت من كل مائدة على التقريب .

ومما يستحق التنويه به في نبذة خاصة أن هذا المنظر العجيب يمكن أن يشاهد كل ليلة في كثير من مقاهي نيويورك ، ولطالما استنفدت فيها أطنان من الجعة على مناقشة مثل هذه النظريات . ويظن البعض أن الجنوبيين في المدينة يسوقون أنفسهم سوقا إلى المقاهي إذا جن الليل . وقد يغمض قليلا تعليل هذا الاقبال على مثل هذا الجو المتمرد . بيد أن هذا الغموض غير مستحيل الايضاح ، فان الحرب مع أسبانيا بسنواتها الطويلة ذات المحاصيل السخية في النعناع والبطيخ ، وبطولاتها القليلة في الرماية الطويلة بسباق نيواورليانز ، وولائمها الباهرة المقامة من سكان انديانا وكنساس الذين يتألف منهم مجتمع كارولينا الشمالية ، جعلت الجنوب أشبه ما يكون بأسطورة في مانهاتان . ولقد تقول لك غادة المانيكور في لثغتها الحلوة ان سبابتك اليسرى تذكرها بسبابة سيد من ريشموند بفرجينيا! ولكن ما لنا ولهذا ، فكم من سيدة تحتم عليها أن تكسب قوتها بعرق الجبين ، إنها الحرب كما تعلم!

وعندما كانت الموسيقى تعزف نشيد ديكسى ، قفز شاب فاحم الشعر من حيث لا يدري أحد ، وصاح صيحة الفدائيين في الحرب ، وأدار قبعته ذات الحافة الرخوة بهوس ، ثم انفتل خلال سحب الدخان

إلى حيث وقع على المقعد الشاغر في مائدتنا ، وقدم لنا سجائره .

وكانت السهرة قد بلغت الحد الذي يذوب عنده كل تحفظ ، وطلب أحدنا من الساقي ثلاث كؤوس من الجعة ، وأقر الشاب الفاحم الشعر تضمينه في الطلب بابتسامة وانحناءة من رأسه ، وبادرت بتوجيه سؤال إليه ، وفي نفسي أن أختبر فيه نظرية لي :

- « هل تتكرم بإخباري عما إذا كنت من . . . »

وردتني إلى الصمت ، قبل أن أكمل سؤال ، قبضة أ . رشمور كوجلان وهي تقرع المائدة بعنف ، وقوله :

- « معذرة فهذا سؤال لا أحب أن أسمعه يطرح أبداً . ماذا يهم أن يكون المرء من هنا أو من هناك ؟ وهل من الحكمة أن تحكم على رجل من عنوانه في البريد ؟ لقد رأيت في حياتي كنتوكيين يبغضون الويسكي ، وفرجينيين لم ينحدروا من أصلاب نبلاء الهنود الحمر ، وأنديانيين لم يؤلفوا روايات ، ومكسيكيين لا يرتدون السراويل المحلاة ثناياها بالدولارات الفضية ، ورأيت انجليز يضحكون ، وأمريكيين يبذرون ، وجنوبيين باردي الدم ، وغربيين ضيقي العقول ، ونيويوركيين ، بلغوا من الانهماك في العمل بحيث لا يقفون ساعة في الطريق يشاهدون صبي بدال يعبئ بذراعه الواحدة الزبيب في أكياس الورق . دعوا الرجل يكن رجلاً بذاته ، ولا تعوقوه بدمغه بالانتماء إلى مكان معين » .

قلت له :

- « عفواً . . فان استطلاعي لم يكن طيشا كله . ولكني أعرف الجنوب ، وعندما تعزف الموسيقى نشيد ديكسى أحب أن أرقب السامعين . ولقد أصبحت أومن أن الرجل الذي يصفق لهذا النشيد بعنف خاص واخلاص وطني ملحوظ : أما أن يكون قادماً من سيكوكاس بولاية نيوجرسي ، أو من الحي الواقع على نهر هارلم بهذه المدينة ، ولقد كنت على أن أضع نظريتي هذه موضع الاختبار بسؤال هذا السيد ، عندما قاطعتني بنظريتك الأعم ، كما يجب أن أعترف » .

وعندئذ تحدث إلى الشاب الفاحم الشعر ، وتبين أن عقله هو الآخر

كان يشطح على هواه عندما قال في غموض :

- ليتني أمسخ حلزونا على ذروة واد من الوديان ، وأغني هناك كما أشاء!

ولقد كان من الواضح أن قوله ممعن في الغموض ، فالتفت إلى كوجلان من جديد فألفيته يقول :

- « لقد طفت حول العالم اثنتي عشرة مرة ، وعرفت فردا من الاسكيمو يشتري ربطات عنقه من سنسناتي ، ورأيت مربي ماشية في أوروجواي يكسب جائزة من حل ألغاز علب الطعام المحفوظ . وهآنذا أؤجر غرفة في القاهرة بمصر وأخرى في يوكوهاما على مدار العام . وثمة « شباشب » تنتظرني بمقهى في شنغهاي . ولست محتاجاً لالقاء أي تعليمات عن تسوية البيض في ريودي جانيرو أو واشنطن . . . انها دنيا متناهية في الصغر ، فما فائدة اللغط بكونك من الشمال أو من الجنوب ، أو من كوخ في الريف أو قصر بالمدينة أو من أي مكان ؟ انه ليكون عالما أفضل لو انصرفنا عن هذا التحامق حول الانتماء إلى مدينة عفنة ، أو عشرة أفدنة من المستنقعات لا لشيء إلا لأن المصادفة شاءت أن نولد هناك . . »

وقلت في اعجاب :

- « يبدو لي أنك مواطن عالمي أصيل ، ولكن من الواضح كذلك أنك تحتقر الوطنية! »

قال كوجلان في حرارة :

- « إنها طلل من أطلال العصر الحجري ، فنحن كلنا أخوة ، الصينيون والانجليز والزولو والبتاجونيون ، وأولئك الذين يعيشون في منعطف نهركو (الهنود الحمر) ، وسيفنى يوماما هذا الزهو السخيف بمدينة ما ، أو ولاية ما ، أو بقعة ما ، أو أمة من الأمم ، وسنصبح كلنا يومئذ مواطنين عالميين كما ينبغي أن نكون . . »

ومضيت فيما كنت أقول :

« ولكنك وأنت تجوب الآفاق ألا تثوب أفكارك إلى مكان ما ، مكان عزيز عليك ، مكان . . . »

وقاطعني أ . ر . كوجلان في اندفاع :

« مالي من مكان مثل هذا قط ، فإن وطني هو هذا الركام الفلكي الترابي الكروي المفلطح قليلا عند قطبيه ، المعروف باسم الأرض .

وكم قابلت في الخارج كثيراً من عبيد الوطن من سكان هذه البلاد ، وكم رأيت رجالا من شيكاغو يركبون زوارق البندقية في الليالي المقمرة ، فلا يحلو لهم الكلام إلا عن مجاري مدينتهم . بل اني عرفت رجلا من الجنوب قدم على ملك انجلترا وصافحه دون أن يتكلف ارخاء جفنيه ، لعلمه أن عمة من عمات جد من أجداده لامه ، كانت قد أصهرت إلى أسرة بركنسيز التي تمت بصلة القربى إلى الأسرة الملكية ، كما عرفت رجلا من نيويورك خطفته عصبة من قطاع الطرق في أفغانستان بغية الفدية ، فافتداه أهله . فأعادته العصبة مع ممثلها إلى كابول . وقال له الأهالي عن طريق ترجمان : «ليست أفغانستان بالبلد الراكد . أولا تظن ذلك ؟» فأجابهم : «لا أدري» ثم مضى يحدثهم عن سائق عربة في الشارع السادس وعن برودواى : إن هذه الاتجاهات لا تلائمني ، ولا توجد ثمة رابطة بيني وبين شيء ما يقل قطره عن ثمانية آلاف ميل ، فاعتبرني أ . رشمور كوجلان مواطن الكرة الأرضية ليس إلا » . . .

***

وغادرني مواطني العالمي بكلمة وداع سخية ، إذ خيل إليه أنه يرى بعض معارفه من خلال «الشيش» وسحب الدخان ، وكذلك تركني وحيداً مع حلزون المستقبل الذي سلبته نشوة الجعة كل قدرة على التعبير عن أمانيه في التغني على ذروة واد من الوديان .

وجلست أتأمل في مواطني العالمي الذي لا ريب فيه! وأعجب كيف ضل عنه الشاعر كبلنج . لقد اكتشفته وآمنت به . على رغم ما قال ذلك الشاعر : «وان من بين أبنائها من يذرع العالم شمالاً وجنوباً ، ولكنه يتعلق بمسقط رأسه كما يتعلق الطفل بذيل أمه» -!

إن أ . رشمور كوجلان لم يكن واحداً من هؤلاء ، فالدنيا كلها تحت أخمص قدميه .

وقطعت تأملاتي ضوضاء عنيفة ، وشجار في ركن من أركان المقهى ، ورأيت من فوق رؤوس الرواد الجالسين أ . رشمور كوجلان مع رجل آخر أجهله ، في معركة حامية الوطيس . لقد كانا يتلاكمان بين الموائد كالعمالقة . وتحطمت كؤوس ، وهوت أجساد وأصحابها يتهيأون للخروج ، وصاحت غادة سمراء تستغيث ، وراحت غادة أخرى شقراء تغني أغنية لا تعاكسني!!

وكان مواطني العالمي يمكن لكبرياء الأرض وسمعتها عندما أطبق الخدم على المتناضلين معاً بمهارتهم المعروفة في رمي الأثقال ، فقذفوا بهما إلى الخارج وهما عاكفان على النضال .

وناديت ماكارثي ، وهو أحد الندل الفرنسيين ، فسألته عن علة هذا الشجار ، فقال :

– « إن الرجل ذا ربطة العنق الحمراء (مواطني العالمي) غضب لشوارع بلاده ومياه شربها عندما اتهمها زميله بالقذارة »!

وقلت مبهوتا :

– « ولكن كيف والرجل مواطن عالمي ، وطنه المعمورة ، و . . . »

فقال ماكارثي :

– « لقد قال انه في الأصل من ماتاووم كياج في ولاية مين » وانه لا يمكن أن يحتمل اهانة توجه إلى هذا المكان! »

قصة لم تكمل

لم نعد نجزع أو نحثو على رؤوسنا التراب عندما تذكر أمامنا نيران الجحيم ، فان الوعاظ أنفسهم أصبحوا يتحدثون عن الراديوم والأثير وسواهما من المكتشفات العلمية كما يتحدثون عن الله ، ولعل من بينهم من أصبح يقول ان أخشى ما نخشاه بعد الموت - نحن البشر الخطأة - وهو التحلل إلى هباء . ولقد يسرنا هذا الرأي وإن كانت أرواحنا ما زال يخالجها أثر من ذلك الفزع القديم مما وراء الحياة .

إن ثمة موضوعين اثنين نستطيع أن نطلق لخيالنا العنان في التحدث عنهما بمنجاة من الجدل : أولهما التحدث عن أحلامنا ، والثاني رواية ما تقول الببغاء . فمجال القول فيهما ذو سعة ، لأن إله النوم الطائر المسكين ، كلاهما شاهد لا يصلح للشهادة ، وهيهات أن يجد السامع في حديثك عنهما مطعنا فيما تقول! ومن أجل ذلك احترت أن أجعل من الرؤيا وتهاويلها الزائفة مادة لهذه القصة ، وأستغفر الببغاء اللطيف نادما على اهماله لضيف مجال حديثه المحدود . .

***

رأيت فيما يرى النائم حلما يتعالى على النقد والجدل ، لأنه يتصل بالحشر والحساب رأيت قوما من رجال المال المحترفين يرتدون السواد الحالك ، والبنائق ذوات الأزرار والعرى الخلفية ، وقد نحوا جانباً ، وكأنما ثمة بعض المتاعب في تحديد منازلهم في الآخرة ، وبدا أننا كلنا عن الجنة مبعدون .

ووقع على شرطي مجنح من شرطة الملائكة ، فقبض على جناحي ، وأشار إلى ثلة أخرى من الأرواح كانت تبدو عليهم مظاهر العز ، وكانوا ينتظرون هم كذلك دورهم في الحساب ، ثم تساءل :

– « ألك بهذه الطغمة صلة ؟ »
وكان جوابي : « من هم هؤلاء . . . ؟ »
قال : « انهم . . . »
ولكن مالي وهذا اللغو غير الملائم الذي يشغل حيزاً كان يجب أن يخصص للقصة .

إن دالسي كانت تعمل في محل تجاري ، تبيع المبار أو الفلفل المحشو أو السيارات ؟ ؟ أو غير ذلك من التحف الصغيرة التي تباع عادة في الحوانيت . وكانت تتقاضى ستة ريالات في الأسبوع من أجرها ، ويحتفظ لها بالباقي مقيداً في حساب شخص آخر ، شخص معنوي سمه إذا شئت بالطاقة المهيمنة .

وخلال العام الأول من عملها في هذا المتجر ، كانت دالسي تتقاضى خمسة ريالات في الاسبوع . . ولقد يفيد كثيراً لو عرفنا كيف كانت تعيش على هذا الدخل ، ولكن لا تلق بالا إلى ذلك ، فلعلك لا تعنى إلا بحساب الدخل الكبير . وقد كبر دخلها فعلا عندما أصبحت الخمسة الريالات ستة . وسأصف لك كيف عاشت على ستة ريالات في الأسبوع .

حدث في الساعة السادسة ذات مساء أن قالت دالسي لصديقتها سادى العاملة كنادلة في مطعم ، وهي تشبك قبعتها في شعرها بدبوس ، كان بين سنه وبين مخها أقل من ثلاثة سنتيمترات :
– « لقد واعدت بيجى على العشاء الليلة ، فماذا تقولين ؟ »
وصاحت سادى في اعجاب :
« يالك من محظوظة! إنها فرصة لم تتح لك من قبل ، وان بيجى لشاب عظيم ، وهو لا يذهب برفيقته إلا إلى الأماكن العظيمة ، فقد أخذ بلانش ذات ليلة إلى مطعم هوفمان ، حيث الموسيقى عظيمة ، وحيث ترين طائفة من العظماء! أؤكد لك يا دالسي أنك ستستمتعين بوقت عظيم » .

وأسرعت دالسى إلى البيت ، وعيناها تألقان ، وفي وجنتيها أثر من ذلك الشفق الوردي المبشر بفجر الحياة . وكان اليوم يوم جمعة ، ولم

يبق معها من أجر الأسبوع السابق أكثر من نصف ريال .

وكانت الشوارع تزخر بجموع هائلة من الناس ، في أشد الساعات احتشاداً ، وهي ساعة خروج العمال . وكانت أنوار برودواى الكهربائية ساطعة تجتذب الفراش من مئات الأميال في الظلام المحيط ، تدعوها أن تكون أجنحتها على زجاج المصابيح ، وكان رجال مهندمو الثياب ، لهم وجوه كوجوه الصور التي ترسمها أملاح البحر على الصخور الحمراء في مساكن الصيادين ، يتلفتون نحو دالسى ، ويحملقون فيها ، وهي تمر بهم مسرعة لا يعنيها من أمرهم شيء . ان مانهاتان - زهرة الليل الناضرة - كانت شارعة في تفتيح غلائلها الناصعة البياض ذات العطر الفواح .

ووقفت دالسى على حانوت يبيع السلع الرخيصة ، فاشترت وشاحاً مطرزاً بالوشي الزائف ، بالخمسين دانقاً التي كانت تملكها . والتي كان مقدراً لها أن تنفق بأسلوب آخر : خمسة عشر للعشاء وعشرة للفطور وعشرة للغداء ، وعشرة تضيفها إلى مدخراتها التافهة ، وتبدد الخمسة الباقية في شراء قطعة من حلوى عرق السوس ، تلك الحلوى التي تورم خدك كأنك مصاب بخراج في ضرس ، وتدوم في فمك دوام هذا الخراج . إن حلوى عرق السوس كانت بالنسبة لها بذخاً وسفها ، وأقرب ما تكون إلى القصف . ولكن ما هي الحياة إذا خلت من الملذات ؟

وكانت دالسى تسكن غرفة مفروشة ، وثمة فرق بين غرفة مفروشة في بيت ، وبين نظيرتها في نزل ، وذلك أن السكنى في الأولى لا تتيح للناس الفرصة لأن يعرفوا أنك جوعان .

وصعدت دالس إلى حجرتها ، في الجزء الخلفي من الطابق الثالث ، في منزل بسيط . فأوقدت مصباح الغاز . ويقول لنا العلماء أن الماس أصلب المواد المعروفة ، وهذا ضلال . فإن ربات البيوت يعرفن مادة يعتبر الماس بجوارها عجينا ، وهن يضعنها في أفواه المصابيح الغازية ، فيصعد الساكن على مقعد يجاهد في سبيل اخراجها فتحمر أصابعه وتدمى ، ولكن دون طائل . ودبوس الشعر تستعصي عليه كذلك ، ومن

أجل ذلك دعونا نسم هذه المادة بالمادة الراسخة .

وكذلك أوقدت دالسى المصباح ، ولنلق نظرة على الغرفة في ضوئه الذي لا يتجاوز ربع شمعة .

سرير صغير ، وصوان للملابس ومنضدة ، ومغسل وكرسي ، وتهمة تملك هذه الأشياء توجه إلى ربة البيت . فأما ما عداها ، فكان ملكا خالصا لدالسى ، فعلى الصوان صفت ذخائرها وهي عبارة عن أصيص من الصيني المموج بالذهب مهدى إليها من سادى ، وتقويم صادر عن معمل « طرشى » وكتاب في تفسير الأحلام ، وبضع ثمار من الكريز الصناعي مربوطة بشريط وردي .

وأمام المرآة المتجعدة وضعت صورة للجنرال كتشنر وأخرى لوليم مالدون ، وثالثة لدوقة مارلبرو ورابعة لبنفنيوتوسليني وعلى الجدار علقت لوحة من الجبس لشخص يدعى أو . كالاهان يرتدي فوق رأسه خوذة رومانية . وعلى مقربة منها لوحة زيتية ذات ألوان صارخة لطفل مصفر الوجه ، يعاكس فراشة ثائرة . . وكانت هذه الصور واللوحات هي أسمى ما يصل إليه الفن في رأي دالسى ، وما من شيء أو نقد كان يستطيع زعزعة هذا الايمان .

وكان بيجى على أن يمر عليها في السابعة . فلنتركها تتهيأ للخروج ، ونواجه ناحية أخرى وتمائم أخرى ولكن دون تجريح .

إن دالسى كانت تدفع في غرفتها ريالين كل أسبوع . وكانت تفطر في أيام العمل بعشرة دوانق تكفي لعمل فنجان من القهوة وسلق بيضة ، على لهب المصباح ، وهي ترتدي ثيابها . وفي صباح يوم الأحد كانت تولم وليمة ملكية في مطعم قريب على شرائح اللحم والاناناس تكلفها خمسة وعشرين دانقاً مضافا إليها عشرة دوانق تنفح بها الخدم . ولما كانت نيويورك تزخر بالفتن التي تغرى بالبذخ والاسراف ، فانها وقت نفسها من هذه الفتن بالتغدي في مقصف الحانوت كل أيام الأسبوع ، حيث لا يكلف الغداء أكثر من ستين دانقاً (ولا يكلف العشاء إلا ريالا وخمسة دوانق) وكانت تنفق على صحف المساء - وأروني واحداً من سكان نيويورك لا يقرأ صحيفة يومية - ستة دوانق ، وتشتري اثنتين

من صحف الأحد بعشرة دوانق ، تطلع في احداها على نهر الخصوصيات ، وتقرأ الأخرى ، ومجموع ذلك كله أربعة ريالات وستة وسبعون دانقا . ولما كان على المرء أن يشتري ثياباً . . .

إني أقر بالعجز عن متابعة هذا الحساب ، ولئن كنت أسمع عن صفقات ملائمة في الثياب ، ومعجزات تصنع من الخيط والأبر ، فإني أشك فيها جميعا . وهأنذا أشرع قلمي عبثاً لاضيف إلى حياة دالسى شيئاً من المباهج التي تمنحها للمرأة كل القوانين المقدسة ، الطبيعية ، غير المكتوبة ، غير المعمول بها ، التي شرعتها عدالة السماء . نعم ان دالسى ذهبت إلى مدينة الملاهي مرتين ركبت فيهما الجياد الخشبية ، ولكن بؤساً لحياة تعد مسراتها بمواسيم الصيف بدلا من عدها بالساعات .

ولن يحتاج بيجى لأكثر من كلمات . إن الفتيات عندما يذكرنه ، كن يصمن السلالة النبيلة للخنزير بوصمة لا يستحقها المسكين . وكانت الكلمات المتقطعة التي كان الأطفال يتعلمون فيها التهجي في كتب الهجاء القديمة تلخص تاريخ حياته كله : سمين ، فأر ، خفاش ، قط . . . فقد كانت له من الفار روحه ، ومن الخفاش عاداته ، ومن القط نخوته . وكان يرتدي أفخر الثياب ، وله خبرة عجيبة بمعرفة آيات الجوع والحرمان . ولقد ينظر إلى الفتاة العاملة نظرة واحدة ، فيحدد لك بالساعة كم مر عليها من الوقت لم تتزود بغير الخبز والشاي . وكان يتسكع في الأحياء التجارية ، ويتجول في الحوانيت ، ومعه دعواته المعدة للعشاء ، محتقراً من أولئك الذين يسيرون في الشوارع وفي أيديهم أعنة كلابهم ، فقد كان يمثل نمطاً بعينه من الناس ، ولن البث معه طويلا فان قلمي ليس من النوع الذي يصلح له ، فوق اني لست بنجار .

وفي الساعة السابعة إلا عشر دقائق كانت دالسى مستعدة ، ونظرت إلى نفسها في المرآة المتجعدة ، فرضيت عن طيفها . . ان ثوبها الأزرق المنسجم على جسدها دون غضون ، والقبعة بريشتها السوداء ، والقفازات النظيفة إلا من شيات قليلة ، كانت كلها تتسق ونكرانها للذات حتى للطعام .

ومرت لحظة نسيت فيها دالسى كل شيء إلا أنها جميلة ، وأن الحياة توشك أن ترفع لها ركنا من قناعها الغامض لترى من ورائه ما تنطوي عليه من عجائب . انها أول مرة يدعوها فيها رجل ، وها هي ذي مقبلة على لحظة قصيرة من لحظات التجلي والاشراق .

لقد سمعت الفتيات يقلن عن بيجى انه متلاف ، فهي إذن على موعد مع عشاء فخم ، وموسيقى شجية ، ورؤية سيدات يخطرن في ثياب العز ، وألوان من الطعام طالما رأت أفواه الروايات تتلمظ وهن يتحدثن عنها ، وما من شك أن هذه الدعوة ستتكرر .

إنها رأت ذات يوم في معرض حانوت تعرفه حلة حريرية زرقاء ، ولو أنها وفرت عشرين دانقاً في الأسبوع بدلاً من عشرة . . . دعونا نحسب! إن شراءها يستغرق سنين ، بيد أن ثمة حانوتا لبيع الملابس المستعملة حيث يمكن . . .

وسمعت قرعا على الباب ، ففتحته ، فألفت قيمة البيت واقفة تبتسم ابتسامة متكلفة ، وهي تتنسم رائحة الغاز المسروق ، في تحضير القهوة على زبالة المصباح ، وتقول :

- « يوجد تحت سيد يريد أن يراك ، يدعى مستر ويجنس »

وبهذا الاسم كان بيجى معروفا بين أولئك التعيسات اللائي نظرن إليه نظرة الجد ، فخدعن فيه .

ورجعت دالسى إلى الصوان لتأخذ منديلا ، ولكنها وقفت هناك كالصنم ، تعض شفتها السفلى . ونظرت إلى المرآة فوجدت دنيا من الأحلام ، رأت فيها نفسها أميرة تصحو لتوها من نوم طويل . ونسيت شخصا كان يرقبها بأعين عابسة حزينة جميلة ، شخصاً كان هو الوحيد الذي له حق الرضا أو السخط على كل ما تفعل ، فقد كان الجنرال كتشنر يشخص اليها بعينيه الساحرتين ، من الإطار المذهب على ظهر الصوان ، ومن صورته الرشيقة ذات القامة الطويلة المنتصبة ، وعلى وجهه الحزين الجميل نظرة تأنيب .

ودارت دالسى على عقبيها إلى ربة البيت كأنها دمية تتحرك بزنبرك ، وقالت لها بكآبة :

- «قولي له انني لن أذهب ، قولي اني مريضة ، أو قولي ما تشائين ، أخبريه انني لن أخرج » .

وبعد أن أغلقت الباب بالمفتاح ، استلقت على الفراش ، ساحقة قبعتها ذات الريشة السوداء ، وبكت عشر دقائق . ان كتشنر كان صديقها الوحيد ، وكان مثلها الأعلى لشهامة الفرسان ، وقد بدا على وجهه حزن دفين ، وبدا شاربه الجميل كأنه حلم من الأحلام ، وأشفقت من تلك النظرة العابسة في عينيه وان لم تخل من عطف . وكثيراً ما كانت تتخيل انه سيمر بالبيت يوما ما ، سائلا عنها ، وغمد سيفه يقرع حذاءه العالي ، وقد فتحت نافذتها يوما وتطلعت منها عندما سمعت صليل سلسلة حديدية كان غلام يقرع بها عامود مصباح النور . ولكن أي جدوى وهي تعلم أن كتشنر بعيد عنها في اليابان يقود جيشه ليحارب الأتراك المتوحشين . .! وتوقن انه لن يخرج إليها من اطاره المذهب ، ومع ذلك فان نظرة واحدة منه ألوت ببيجي هذه الليلة . أجل هذه الليلة ليس إلا .

وعندما فرغت دالسى من البكاء نهضت وخلعت أبهى حللها وارتدت قميصها الأزرق القديم . وعزفت عن الطعام ، وتغنت بأغنيتين ، ثم شغلت بهنة حمراء وجدتها على جانب أنفها ، فلما فرغت منها ، جرت مقعداً إلى المنضدة الكسيحة ، وجلست تستطلع حظها في مجموعة من ورق اللعب القديم .

وقالت في صوت مسموع : «هذا الشبح الفظيع السليط . . وما نظرت إليه أو نطقت أمامه بكلمة تجعله يفكر فيما ذهب إليه! »

وفي التاسعة أخرجت دالسى من حقيبتها علبة بسكوت ، وزجاجة صغيرة من المربى ، وأقامت لنفسها وليمة . وعرضت على كتشنر قطعة من البسكوت عليها قليل من المربى ، ولكنه لم يفعل شيئاً أكثر من النظر إليها نظرة أبى الهول إلى فراشة تحوم حوله لو أن الفراش عاش في الصحراء .

وقالت دالسى :

- «لا تذقها إذا لم تصادف هواك ، ولا تتكلف كل هذا التكلف ،

ولا تزجرني هكذا بعينيك . .! أتراك كنت تتعالى كما تتعالى اليوم وتصعر خدك كما تفعل ، لو أنك كنت تتقاضى ستة ريالات في الأسبوع ؟ »

وإذا أغلظت دالسى القول لكتشنر كان هذا نذيرا بالشر ، فلم تلبث حتى بطحت بنفنيوتوسلينى على وجهه وفي وجهها عبوس شديد ، ولكن عملها هذا لم يكن فوق المعاذير ، فانها كانت تتمثل فيه دائماً هنري الثامن ، ولا تنظر إليه باعجاب .

وفي منتصف التاسعة ألقت دالسى نظرة أخيرة على مجموعة الصور ، وأطفأت النور ، وأوت إلى الفراش ، وانها لمحنة أن يأوي المرء إلى فراشه ، فلا يجد من يتمنى له الأحلام الطيبة سوى الجنرال كتشنر ، ووليام مولدون والدوقة مارلبرو ، وبنفينيوتو سلينى .

***

إن هذه القصة لم تكتمل ، وستحدث نهايتها بعد ، عندما يعود بيجى فيدعو دالسى إلى العشاء مرة أخرى ، وتكون هي شاعرة بمرارة الوحدة ، ويكون كتشنر منصرفاً عنها بنظراته مصادفة ، وعندئذ . . .

لقد رأيت فيما يرى النائم كما قلت من قبل ، اني كنت أقف بجوار ثلة من الملائكة تبدو عليهم سمات العز ، فقبض على جناحي شرطي ، وسألني إن كنت من هذه الطغمة ؟

وسألته بدوري : « من هم هؤلاء ؟ »

فقال : « ألا تعلم ؟ إنهم أولئك الرجال الذين كانوا يأجرون الفتاة العاملة بخمسة أو ستة ريالات في الأسبوع ، لتعيش عليها ، فهل أنت من هذه الطغمة ؟ »

قلت : « أنا ؟ كلا وحق خلودك . اني لم ارتكب في حياتي جرماً أشنع من ايقاد النار في ملجأ للأيتام ، وقتل رجل ضرير ، لأغتصب ما كان معه من نقود » . . .!

في خدمة الحب

إذا أحب المرء فنه فقلما يشق عليه عمل فيه .

هذه مقدمة لقضية منطقية ، وستستخلص من هذه القصة نتيجة ، وستثبت في نفس الوقت أن هذه المقدمة باطلة ، وهو شيء جديد في المنطق ، ولكنه براعة مألوفة في التأليف القصصي قد تكون أعرق في القدم من سور الصين الكبير .

نزح جولارابى من مستنقعات الغربَ الأوسط ، ينبض بالعبقرية في فن التصوير ، فقد قام وهو في السادسة بعمل لوحة لمضخة الماء بالقرية يغذ السير على مقربة منها أحد القرويين ، ووضع اللوحة في اطار ، وعرض الاطار في معرض حانوت بقال ، إلى جوار « كوز » من الذرة لم تتزاوج صفوف الحب فيه كالمعتاد . وفي العشرين سافر إلى نيويورك بربطة عنق منتفشة ، ورصيد مالي ملموم .

وكانت ديليا كاروثرز من أهل قرية عامرة بأحراش الصنوبر ، من قرى الجنوب ، تبهر أقاربها بما تسويه من هوائل في الموسيقى ، فتعاونوا على أن يجمعوا لها صبابة من المال ، لتنزح إلى الشمال وتستكمل هذا النبوغ ، بيد أنهم لم يقدر لهم أن يروا نبوغها يكد . . . ولكن صبرا فهذا جوهر القصة .

تلاقى جووديليا في متحف ضم طائفة من طلاب الفن والموسيقى ، يتجاذبون الحديث عن تبادل الأضواء والظلال في الصور ، وعن وجنر ، والموسيقى وأعمال رامبراندت ، واللوحات ، ووالدنتوفل ، وورق الجدران الملون ، وشوان وأولنج .

وتحاب جووديليا ، أو قل إذا شئت أحب كل منهما الآخر ، وتزوجا في وقت قصير ، فانه - كما قرأت في مطلع القصة - إذا أحب المرء فنه ،

فما من عمل يشق عليه فيه .

وبدأ آل لارابى حياتهما الزوجية في شقة(١) . . . شقة منعزلة انعزال المفتاح الصارخ في أقصى اليسار من لوحة البيان . وكانا سعيدين ، فلكل منهما فنه ، ولكل منهما صاحبه ، واني لأهيب بكل شاب ثري ، أن يبيع ما يملك ، ويتصدق به على الفقراء ويحظى بالسكنى في شقة مثل هذه مع فنه وديلياه .

إن كل نزلاء هذه المساكن يعززون رأيي ان سعادتهم هي السعادة الحقيقية الوحيدة ، فالبيت السعيد ولو كان جحراً لا يضيق بساكنيه . دع خزائن الملابس تنقلب فيه موائد للبليارد ، وطنف الموقد يستحل إلى آلة للتجديف ، والمائدة ذات الأجنحة المتحركة إلى غرفة نوم احتياطية ، وحوض الغسيل إلى بيان «على الواقف» ودع الجدران الأربعة تتعانق - إذا استطاعت - فانك وديليا بين أحضانها سعيدان . أما إذا كان البيت على النمط الآخر ، فليتسع وليمتد ما شاء ، وليكن مدخله الجولدن جيت(٢) وليكن مشجب القبعات فيه رأس هاتيراس ، ومشجب المعاطف رأس الرجاء الصالح ، وليكن بابه الخلفي شبه جزيرة لبرادور .

وتتلمذ جو في التصوير على ماجستر العظيم - ولعلك تعرف ماله من ذيوع الصيت . إنه يتقاضى أجورا طنانة على دروس جوفاء ، ومن هذا الطنين الأجوف ملأ صيته الآفاق . وكانت ديليا تتلمذ على روزنستوك ولا بدانك تعرف شهرته كمقلق أعظم لمفاتيح البيان .

كانا سعيدين سعادة ضافية ، طالت ما بقي معهما فضلة المال . ككل الـ . . . ولكني لن أعمد إلى السخرية . إن أهدافهما كانت محددة وواضحة غاية الوضوح . فجو كان عليه أن يصبح قادراً في أقصر وقت على إخراج لوحات يتلائم في مرسمه على الحظوة بشرائها السادة العجائز أصحاب الشوارب الرفيعة والمحافظ المنتفخة ، وكانت ديليا على أن تحذق الموسيقى ، وتكبر عليها إلى الحد الذي يسمح لها ، بالزوغان من المسرح إذا وجدت المقاصير ومقاعد الصفوف الأولى خالية ، والمضي بزورها الموجع

١ - الشقة - القطعة المشقوقة من شيء، وقد استعملت هنا ترجمة للكلمة Apartement.

٢ - الجولدن جيت «الباب الذهبي» مضيق في سان فرانسسكو. ورأس هاتيراس رأس ناتئ في جزيرة تواجه ساحل كارولينا الشمالي.

إلى مطعم منعزل تتعشى على الجنبري فيه .

بيد أن أجمل شيء على ما أعتقد كان حياتهما المنزلية في الشقة الصغيرة ، وتلاغيهما الفياض بالمحبة ، والتبسط بعد الفراغ من دروس النهار ، والعشاء اللطيف والفطور الطري الخفيف ، وتقارض المطامع التي يشترط فيها الجمع بينهما ، أو لا توضع موضع الاعتبار ، وتبادل العون والالهام ، و - وعفواً عن قلة الذوق - شطائر الجبن والزيتون المحشو ، في الحادية عشرة من كل صباح .

ولكن الفن لم يلبث أن نكس[1] وهو خليق أن يفعل أحياناً ، ولو لم ينكس رايته ديدبان . كل شيء يذهب وما من شيء يجيء كما يقول الناس .

وأعوزتهما أجور السيد ماجستر والهر روزنستوك ، ولما كان المحب لفنه لا يشق عليه شيء ، فقد قالت ديليا انها ترى لزاما عليها أن تقوم باعطاء دروس في الموسيقى حتى يظل الزيت ينش في المقلاة .

وبقيت يومين أو ثلاثة تتصيد تلاميذ ، وذات مساء عادت إلى البيت مزهوة ، وقالت في ابتهاج : «لقد وجدت تلميذة يا عزيزي جو . انها ابنة الجنرال أ . ب . بكنى في الشارع الحادي والسبعين ويا له من بيت فخم ، يجدر بك أن ترى بابه الأمامي يا جو ، وأحسبك ستسميه بيزنطي الطراز ، أما داخله ، فآها يا جو ، إن عيني لم تقع له قط على نظير» .

«تلميذتي هي ابنته كليمنتينا ، وقد شغفتني حبا مذ رأيتها . إنها تذوب رقة ، وتلبس البياض على الدوام ، وترف سجاياها بساطة وحلاوة . وهي في الثامنة عشرة لا أكثر . وسأعطيها ثلاثة دروس في الأسبوع . وتصور يا جو . . . عن كل درس خمسة ريالات . وما يهمني الأمر البتة ، فعندما أستزيد تلميذاتي اثنتين أو ثلاثة أخريات ، سأستأنف دروسي مع الهرروزنستوك . والآن حل عنك هذا القطوب يا عزيزي ودعنا نستمتع بالعشاء» .

قال جو وهو يغزو علبة البازلاء المحفوظة بسكين تحت مطرقة :

- «لا بأس في هذا من ناحيتك ، ولكن ماذا يكون من أمري أنا ،

---

١ - نكس - بالمبنى للمجهول ضعف وعجز.

هل تحسبينني أتركك تجاهدين للقوت وأنا أحلق لاهيا في سماء الفن ؟ كلا وعظام بنفنيوتوسليني! أظنني قادراً على كسب ريال أو ريالين كل يوم من بيع الصحف أو رصف الطريق » .

فقامت ديليا فتعلقت بعنقه قائلة :

- « جو يا حبيبي انك أحمق . يجب أن تظل في مرسمك . لا تحسبني سأهجر موسيقاي وأشتغل في عمل آخر ، ولكني سأتعلم وأنا أعلم . إنني مع موسيقاي على الدوام ، وسنستطيع أن نعيش في بحبوحة أصحاب الملايين على خمسة عشر ريالا في الأسبوع ، فلا تفكر في ترك السيد ماجستير » .

قال جو وهو يتناول صحن الجنبري والخضر : « ليكن وان كنت أكره لك إعطاء الدروس ، فما فيه من فن ، وهذا لا يمنع أن عملك هذا آية في اللطف والشهامة! »

قالت ديليا : « إذا أحب المرء فنه فما من عمل يشق عليه فيه » .

وقال جو : « إن ماجستير قد أثنى على ألوان السماء في تلك اللوحة التي رسمتها في المتنزه العام . وقد رخص لي تنكل أن أعلق لوحتين في معرضه ، وقد أبيع واحدة منهما ، إذا رآها أبله ثري من النوع المناسب! »

قالت ديليا بنعومة : « ذلك ما أنا على يقين منه ، فدعنا الآن نقم بواجب الشكر للجنرال بكنى وشواء الكندوز! »

وخلال أيام الأسبوع التالي كلها بكر آل لارابى في الافطار ، فقد كان جو متلهفا على رسم بعض مناظر الصبح بالمتنزه الكبير ، وكان على ديليا أن تهيئه للخروج في السابعة ، بطينا مدللا مغمورا بالثناء والقبلات . وكانت السابعة في المساء موعد عودته في أكثر الأيام .

وفي نهاية الأسبوع رمت ديليا رمية الظافر ، وبشيء من الزهو الحلو المشوب بالوهن ، ثلاث أوراق مالية من فئة الخمسة الريالات ، على المائدة ذات الثماني البوصات في العشر ، والقائمة في وسط البهو العاري ذي الثمانية الأقدام في العشرة . ثم قالت في كلال :

- « إن كليمنتينا تضنيني أحياناً ، وأخشى أن تكون قليلة التمرن ، فإني أضطر إلى إعادة نفس الشيء لها عدة مرات ، ثم هي لا تفتأ تلبس

الأبيض من الفرع إلى القدم ، فيؤدي ذلك إلى ملالة الشيء الرتيب . بيد أن الجنرال بكنى ألطف عجوز ، وكم أود لو أنك عرفته يا جو ، انه يوافينا أحيانا ونحن على البيان - وهو أرمل كما تعلم - فيقف بجوارنا يشد عثنونه الابيض ، ويتساءل على الدوام : وكيف حال النغمات والارباع والاثمان ؟ »

« وليتك ترى هذا الكنار الخشبي في غرفة الاستقبال يا جو والستائر الاستراخانية على الأبواب . ان كليمنتينا تسعل سعلة رقيقة مضحكة ، وآمل أن تكون أقوى مما تبدو . لقد بدأت في الحق أتعلق بها ، فانها الرقة مجسمة والتربية في أسمى طراز . ولقد كان أخو الجنرال بكنى يوما ما سفيرا لبوليفيا! »

وأخرج جو من جيبه أربع ورقات مالية غضة أصيلة ، واحدة عشرة ، والثانية بخمسة ، والثالثة بريالين والرابعة بريال ، أخرجها كما لو أنه الكونت مونت كريستو ، وضعها بجوار أوراق ديليا وقال في حماسة : « لقد بعت لوحة المسلة ذات الألوان المائية لرجل من بيوريا » .

قالت ديليا : « لا تسخر مني . لا يمكن أن يكون من بيوريا! »

- « منها من الرأس إلى القدم . ليتك رأيته يا ديل . رجل بدين بوشاح من الصوف ، ودبابيس أسنان من الريش . رأى اللوحة في معرض تنكل ، وظنها لأول وهلة طاحونة هواء ، ومع ذلك فقد أقدم واشتراها على أية حال ، وطلب مني أن أرسم له لوحة زيتية أخرى لمخازن لاكوانا الجمركية ، ليأخذها معه وهو عائد إلى وطنه . . . دروس موسيقية! هيه! أظن الفن ما زال خفاق اللواء ؟ »

قالت ديليا في اخلاص : كم أنا فرحة بمضيك قدما ، انك لخليق بالفوز أيها الحبيب . ثلاثة وثلاثون ريالا . هذه ثروة لم نملك مثلها من قبل . سنأكل الليلة الجندوفلى!

قال جو : وفليتو بالشمبنيون . أين ملقاط الزيتون ؟

***

وفي مساء السبت التالي سبقها جو في الوصول إلى البيت ، فنشر ريالاته الثمانية عشر على المائدة ، وغسل ما بدا على يديه كمقدار مائل

من الصباغ الأسود .

ووصلت ديليا بعد نصف ساعة ، ويدها اليمنى ملفوفة في حزمة من الخرق والأربطة .

وسألها جو بعد التحية المألوفة : ماذا حدث ؟

فضحكت ديليا ولكن دون ابتهاج كبير ثم أجابت :

– لقد صممت كليمنتينا على أن تأكل قرصا بالجبن مقلية بعد الدرس . انها لفتاة غريبة الاطوار . قرص مقلية في الخامسة بعد الظهر . وكان الجنرال هناك ، وليتك رأيته يا جو وهو يهرع إلى المقلاة كأن البيت ليس فيه خادم واحد . وكنت أعرف أن كليمنتينا متوعكة مستوفزة الأعصاب . وبينما أقدم لها القرص أراقت على يدي ومعصمي مقدارا كبيرا من الزيت وهو في درجة الغليان . وأي ألم أحسسته يا جو! لقد عبرت الفتاة الغالية عن أسفها الشديد! ولكن الجنرال بكنى ، هذا الشيخ العجوز ، لقد كان يصاب بذهول ، وهبط السلم قفزا فأرسل أحدا ما قيل أنه الفران ، أو لعله شخص آخر في الطابق الأرضي ، إلى صيدلية ليحضر بعض الزيت وأدوات للتضميد ، وقد هدأ ألم الحرق نوعا ما الآن .

وأمسك جو يدها برفق ، وأخذ ينسل بعض الخيوط البيضاء من تحت الضماد ، ثم قال : «ما هذا ؟»

قالت ديليا : «هذا شيء ناعم نقع في الزيت» ورأت المال على المائدة فقالت : «هل بعت لوحة أخرى يا جو ؟»

قال جو : «أتظنين ؟ سلى الرجل القادم من بيوريا ، لقد حصل على مخزنه الجمركي اليوم ، وكان مترددا في طلب لوحة أخرى لمنظر على نهر الهدسون . متى حرقت يدك بعد ظهر اليوم يا ديليا ؟»

قالت ديليا في شجن : «أظن الساعة كانت الخامسة . إن المكواة – أعني القرص المقلية خرجت من النار حول ذلك الوقت . ليتك رأيت الجنرال بكنى يا جو وهو . . . »

قال جو : «اجلسي هنا هنيهة يا ديل» وأجلسها على الكنبة ، وجلس بجوارها ، محيطا كتفيها بذراعه ثم سأل :

– ما الذي كنت تصنعين في الأسبوعين الماضيين يا ديل ؟

وواجهت السؤال بشجاعة لحظة أو لحظتين ، وبعين ممتلئة بالحب والكلال ، وغمغمت جملة أو جملتين عن الجنرال بكنى ، ولكنها سرعان ما طأطأت رأسها ، وانفجرت عن فمها وعينيها الحقيقة والدموع .

وراحت تعترف : «لم أستطع أن أحصل على تلاميذ ، ولم أطق أن أراك تتخلى عن دروسك ، فحصلت على عمل لكي القمصان في تلك المغسلة الضخمة بالشارع الرابع والعشرين ، وأحسبني نجحت في اختراع الجنرال بكنى وكليمنتينا . ألا تظن ذلك يا جو ؟ وعندما وضعت فتاة في المغسلة مكواة محماة على يدي بعد ظهر اليوم ، قضيت الطريق كله في عودتي أزيف قصة القرص المقلية!! انك لست غاضباً مني يا جو ؟ أليس كذلك ؟ إني لو لم أحصل على هذا العمل فلربما كنت فشلت أنت في بيع لوحاتك لهذا الرجل القادم من بيوريا » .

قال جو في تؤدة :

- إنه لم يكن من بيوريا!

- وماذا يهم من أين جاء ؟ ما أذكاك يا جو! قبلني ، وقل لي ماذا أرابك من دروسي الموسيقية لكيمنتينا ؟

وأجاب جو :

- ما خامرني شك سوى الليلة ، ولقد كنت حريا ألا أشك في شيء ، لولا أنني أنا الذي أرسلت هذه النفايات من القطن والزيت ، من غرفة الآلات هذا الأصيل ، لفتاة في طابق علوي حرقت يدها مكواة . لقد كنت وقادا لهذه الآلات خلال الأسبوعين الماضيين!

- كأنك لم . . . ؟

- إن عميلي القادم من بيوريا ، هو والجنرال بكنى ، كلاهما منكرات لفن واحد ، ومن العسير أن تلحقي هذا الفن بالموسيقى أو بالتصوير!!

وضحك كلاهما ثم قال جو : عندما يهوى المرء فنه فما من . . . ؟

ولكن ديليا أوقفت بيدها مجرى الألفاظ من شفتيه وقالت :

- كلا . . . لا يحدث ذلك إلا في الحب»

احكام الطبيعة

رأيت في أحد المعارض أول من أمس صورة بيعت بخمسة آلاف ريال . وكان مصورها شابا تافها قدم من الغرب ، يدعى كرافت ، له طعام مختار ونظرية محبوبة : فأما طعامه فايمان طاغ بأن للطبيعة احكاما فنيا لا يخطئ ، وأما نظريته فتدور حول اللحم المملح بالبطاطس والبيض المسلوق . وكان وراء هذه الصورة قصة ، فعدت إلى البيت ، وتركتها تقطر من القلم . إن كرافت هو صاحب الفكر . ولكن هذا ليس بداية القصة :

***

منذ ثلاثة أعوام كنا - كرافت وبل جادكنز الشاعر وأنا - نأكل كل أكلاتنا في مطعم سايفر بالشارع الثامن ، فإذا كان معنا نقود «ابتزها» منا سايفر كما كان يحلو له أن يقول ، وإلا دخلنا وطلبنا الطعام وأكلنا ودفعنا أو لم ندفع . وعلى الرغم من ثقتنا بفظاظة سايفر ، وشدته المتناهية ، فقد كنا نؤمن بأن في قرارة نفسه واحدا من ثلاثة : أميرا ، أو مجنونا ، أو فنانا! . كان يجلس إلى درج خشبي مسوس مغطى بأكوام من فواتير الخدم القديمة ، أعتقد أن السفلى منها لابد أن تكون فاتورة الجنبري الذي أكله هنريك هدسون ودفع ثمنه . وكانت لسايفر قدرة ، يشاطر فيها نابليون الثالث والسمك ذا المنظار ، على تغشية عينيه بغشاء قاتم يحول بين نافذتي روحه وبين النور . وحدث ذات مرة أن أكلنا وتركنا له تلا من الاعذار بدل النقود ، وتلفت خلفي فوجدته يترنح من ضحك لا يسمع خلف نظارته السوداء . بيد اننا كنا ندفع بين الحين والحين ما يتراكم علينا من ديون .

على أن الشيء الجوهري في مطعم سايفر كان «مللي» . وكانت مللي نادلة في المطعم ، تعد مثلا رائعا على نظرية كرافت في الاحكام الفني للطبيعة ، فقد خلقت لهذه المهنة ، كما خلقت منيرفا لفن الحرب ، وفينوس

لعلم الغزل العنيف . ولو أنها صبت من برونز ووضعت على قاعدة تمثال ، لوقفت مرفوعة الرأس بجوار أشد أخواتها البطلات عراقة رمزا «للكبد ولحم الخنزير في خدمة العالم» . وقد خلقت لمطعم سايفر دون سواه ، وانك لتتوقع رؤية شبحها في كل لحظة يشرق من بين سحب البخار المتصاعد من مقالي الزيت ، كما تتوقع رؤية الصخور على ضفاف نهر الهدسون من خلال سحب الضباب ، وبين قتار الخضر وبخار أطنان من لحم الخنزير وما يصحبه ، وصليل الشوك والملاعق والسكاكين ، وصياح الطلبات ، وصراخ الجياع ، وصخب الناس الكريه وهم يأكلون ، وما يحيط بذلك من طنين الوحوش المجنحة التي ورثناها عن الفراعين ، كانت مللي تشق طريقها الرائع كباخرة عظيمة تمخر العباب بين زوارق المتوحشين الصارخين .

كانت آلهتنا هذه - الهة الطعام - مخلوقة على طراز من الروعة والفخامة ، دون محاكاته أهوال . وكانت تشمر أكمامها إلى ما فوق مرفقيها على الدوام . وكان باستطاعتها أن تمسك بنا نحن الفرسان الثلاثة في يديها ، وتقذف بنا من النافذة إلى عرض الطريق . وبرغم أنها كانت تصغرنا جميعا في السن ، فقد كانت من البساطة والأنوثة بحيث عاملتنا كأم منذ البداية . ومخازن القوت عند سايفر صبت علينا ميازيبها بسخاء ملكي لا يكترث بثمن أو مقدار ، كأن بيديها قرن الخصب الذي لا يعرف الفناء . وكان صوتها يرن كجرس فضي عظيم ، وابتساماتها المتواترة تنجلي عن عدد كبير من الأسنان ، وكأنها مطلع الشمس على قمم الجبال ، وما رأيتها مرة قط إلا ذكرت وادي اليوسوميت في كاليفورنيا . ولكني مع ذلك ولأمر ما لم أكن أستطيع أن أتصورها إلا في مطعم سايفر ، ولا يمكن أن تحيا في أي مكان سواه . ان الطبيعة زرعتها هناك ، فثبت أصلها في الأرض ، وشمخت فروعها في السماء . ولقد بدت عليها السعادة حتى لتقبض دولاراتها القلائل مساء السبت من كل أسبوع بابتهاج الطفل الذي يتلقى هبة لم تكن له في حساب .

وكان كرافت أول من عبر عن الخوف الكامن الذي خامرنا جميعا منذ حين ، وجاء هذا التعبير عفوا بالطبع خلال حديث كنا نتجاذب أطرافه في عالم الفنون ، وقارن واحد منا انسجام سيمفونية هايدن مع «دندرمة»

القشدة والفستق بالانسجام العجيب الكائن بين مللي ومطعم سايفر .

وقال كرافت :

- « إن ثمة قدرا ما معلقا فوق رأس مللي . فإذا وقع عليها فقد ضاعت منا ومن سايفر! »

وتساءل جاد كنز في خوف!

« أتراها تسمن ؟ »

وقاطعت في قلق :

« ألعلها تذهب إلى مدرسة ليلية فتتثقف وتسمو على حياتها الحاضرة ؟ »

قال كرافت وهو يلعب بسبابته في بركة من القوة المراقة :

« الذي أعنيه ما يأتي : لقد ابتلى قيصر ببروتس ، والقطن بالدودة ، والمغنية بالخمر ، ومطلع الصيف بمنبت العشب السام ، والبطولة بنوط كارنيجى ، والفن بمورجان ، والورد بـ . . . »

وقاطعته بقلق أشد :

« تكلم . . لعلك لا تعني أن مللي ستبدأ في التطريز ؟ »

وقال كرافت بهدوء :

« سيأتي يوماً ما إلى سايفر قاطع أخشاب من أصحاب الملايين في ويسكونسن يطلب طبقاً من الفول ، وسيتزوج مللي »

وصحنا جاد كنز وأنا في فزع : « محال! »

وأعاد كرافت في جفوة : « قاطع أخشاب »

وتنهدت يائسا : « وقاطع أخشاب من أصحاب الملايين! »

وزمجر جاد كنز : « ومن ويسكونسن . .! »

واتفقنا جميعاً على أن هذا القدر المرعب يهددها ، وقل من الأشياء ما كان أدنى من ذلك إلى الاحتمال . فان مللي في قيامها كالغابة البكر الشاسعة من غابات الصنوبر ، خليقة بأن تسبى عين قاطع أخشاب . ثم نحن لم نكن نجهل عادات هؤلاء الوحوش عندما ينهل عليهم الثراء . انهم يطفرون رأسا إلى نيويورك ، فيضعون كل ما يملكون تحت أقدام أول فتاة تقدم لهم الطبق في مطعم فول! ولم لا ، وصحف الأحد لم تضع عناوينها الكبرى إلا لأمثالهم :

« مضيفة حسناء تظفر بقاطع أخشاب مليونير » .

وظللنا حينا نشعر بأن مللي على وشك الضياع منا .

وكان يؤجج فينا هذا الشعور حبنا للطبيعة وأحكامها الفني الذي لا يخطئ ، فما كان في استطاعتنا أن ننزل عن مللي لخشاب ملعون لعنتين : لعنة الغنى ، ولعنة الجهالة! وكنا نحس رعدة كلما تصورناها في صوتها العذب ، واكمامها المرسلة ، تصب الشاي في خيمة قاطع أشجار ، كلا! انها تنتمي إلى سايفر وإلى قتار اللحم ، وعطر الكرنب ، والالحان الشجية الفخمة لرنين الأطباق ، وصليل السكاكين ، وجلجلة الموائد .

وكأنما كانت مخاوفنا من مخاوف الانبياء ، ففي تلك الليلة بالذات قذفت علينا البراري الرجل الذي حسبنا المقادير عينته لمصادرة مللي ، أي لمصادرة نظرياتنا في الاحكام والنظام ، وأن كانت آلسكا هي التي تحملت عن ويسكونسن عبء توريد الزائر!

وكنا نتعشى على اللحم والتفاح المجفف عندما خب إلى القاعة ، كأنه يجري في أعقاب صف من الكلاب ، فيتعثر بمائدتنا ، ثم يقرع آذاننا بحرية ساكن الخيام ، زاعماً أنه عرف رجالاً ضاعوا في بيوت من الطين . واحتفينا به حفاوتنا بنموذج فذ ، وفي خلال ثلاث دقائق أصبحنا كأعز الأصدقاء .

كان فظا ملتحيا مغضن الوجه ، وقد وصل لتوه من القطار كما قال ، وتصورت كأني أرى أفواج ثلج آلسكا مازالت على منكبيه . ثم راح يغطى المائدة بقطع من الكعك والطير المحنط ، وعقود الخرز وجلد عجل البحر ، ويلغط بملايينه ، التي قدرها « بمليونين » يضاف إليها كل يوم ألف من حصيلة الزمامات . ثم قال :

– « والآن أريد بعضاً من اللحم والخوخ المحفوظ . إنني لم أبرح القطار منذ بدأت رحلتي ، وقد عضني الجوع ، فإن الطعام الذي يقدمه لك الزنوج في البولمان لا يسمن من جوع ، اطلبوا أيها السادة ما يحلو لكم من الطعام » . . .

وأشرقت طلعة مللي وعلى ذراعها العاري ألوف من الأطباق . أشرقت في ضخامة ، وبياض بحمرة ، وفخامة كفخامة جبل القديس الياس ، وابتسامة كمطلع الفجر في واد عميق . ورمى الرجل ما كان بيده من التحف

والجلود كأنها زبالة ، ودلى فكه وحملق فيها حتى كدنا نتخيل تيجان الألماس على جبين مللي ، ونراها ترفل في حلل الديباج الباريسية الموشاة!!

وفي النهاية غزت الدودة القطن ، وزحفت فروع العشب السام (على مطلع الصيف) ، وكاد المليونير الخشاب - المتنكر في ثياب صاحب منجم في آلسكا - يلتهم مللي ، ويقلب الاحكام الطبيعي رأساً على عقب .

وكان كرافت أول من شرع في اتخاذ اجراءات ، فقد نهض ، وصفق ظهر الرجل ، وصاح :

- «تعال ، ولنشرب . . أشرب أولا ثم كل بعد ذلك»

وأمسك جاد كنز بأحذ ذراعيه وأمسكت بالآخر ، وسقناه في مرح ، وصخب ، وبلا فرصة للمقاومة ، كالأصدقاء الحميمين المبتهجين ، من المطعم إلى مقهى ، بعد أن ملأنا جيوبه بطيوره المحنطة وكعكه الذي لا يهضم .

وراح يهدر محتجا ولكن في روح طيبة ، ويقول :

«هذه هي الفتاة التي تليق بغناي! سأدعها تأكل من مقلاتي ما عاشت . ولم لا وعيني لم تقع على أجمل منها من قبل! سأعود وأطلب يدها للزواج! وأظنها لن تعود إلى حمل هذا الغثاء عندما ترى ما أمتلك من أكوام التبر» .

وقال كرافت مغرياً إياه بابتسامة شيطان :

«خذ كأساً أخرى من الويسكي باللبن! لقد كنت أحسبكم أهل الريف أعمق روحا رياضية»

ونفد في البار ما كان مع كرافت من مال ضئيل ، فراح يرسل إلي والى جاد كنز من عينيه اشارات استغاثة ، حتى أنفقنا آخر دانق معنا في تساقي الانخاب مع الضيف .

وعندما فرغت ذخيرتنا ، ورأينا الرجل ما فتئ ممتلكا بعض وعيه ، لاغطا بمللي من جديد ، همس كرافت في أذنه بسبة مسمومة مهذبة لأولئك البخلاء الذين يكتنزون أموالهم بشح ، فراح الرجل يقذف حفنة بعد حفنة من الفضة والورق ، ويطلب كل ما في الدنيا من خمور ، حتى يدفع عن نفسه هذا الاتهام .

وتم المراد ، واستطعنا بسلاحه هو أن نطرده من الميدان ، ثم بعثناه محمولا على عربة إلى فندق بعيد ، حيث ألقى في السرير مع كعكه ، وتحفه

المصنوعة من جلد عجل البحر الصغير!

وقال كرافت :

« إنه لن يعرف طريقه إلى سايفر مرة أخرى ، وسيخطب غدا أول فوطة بيضاء تقع عليها عينه ، في أي مطعم لبن . وهكذا تنجو مللي . . أعني احكام الطبيعة! »

وعدنا إلى سايفر نحن الثلاثة ، ورأينا قلة الرواد ، فشبكنا أيدينا في حلقة ، جعلنا مللي مركزها ، ورحنا نرقص رقصة هندية .

حدث هذا كله كما قلت آنفاً منذ ثلاثة أعوام . وحوالي هذا الوقت هبت علينا نحن الثلاثة نسمة من الحظ الطيب ، واستطعنا أن نأكل طعاماً أغلى من طعام سايفر وان كان أقل جودة ، وضرب بيننا الدهر ، فلم أعد أرى كرافت البتة ، ولم أعد أرى جادكنز إلا لماما .

ولكني رأيت بالأمس كما قلت من قبل صورة بيعت بخمسة آلاف ريال ، وكان عنوانها « الملكة الثائرة » ، وكان المنظر الذي أخذت فيه الصورة في الخلاء . ولكن من بين كل المعجبين الذين وقفوا أمام الصورة مفتتنين بها ، أعتقد أني كنت الوحيد الذي شاقه أن تقفز الملكة الثائرة من اطارها وتحضر لي طبقاً من اللحم والبطاطس والبيض المسلوق .

وحثثت خطاي نحو كرافت ، فوجدت أعينه الشيطانية ما فتئت كما كانت ، وشعره أشد تشعثا مما كان ، ولكن ثيابه خارجة من يدي خياط!!

وقلت له :

« ما كنت أعلم »

قال :

« لقد اشترينا بثمن الصورة بيتاً في برونكس ، وتستطيع أن تزورنا في السابعة من أي مساء »

قلت :

« إذن لم يكن تأليبك لنا على قاطع الأخشاب الألاسكى ، لم يكن مرده كله إلى الاحكام الفني للطبيعة الذي لا يخطئ ؟ »

قال كرافت في عبوس :

« أجل لم يكن له كذلك »!!

من مقعد السائق

إن «لعربجي الحنطور» وجهة نظر . لعلها أشد من مثلها في أية مهنة أخرى ، وحدة في الهدف ، فهو ينظر من مقعده المتأرجح العالي إلى اخوانه في البشرية ، نظرته إلى الهباء المنثور . لا قيمة له إلا بمقدار ما يتسلط عليه من شهوات الطواف والانتقال . انه سائق وأنت بضاعة ليس إلا! لتكن رئيس الجمهورية أو صعلوكا من الصعاليك ، فأنت لست في نظره إلا حملا ، يتسلمك من مكان ثم يفرقع بسوطه ويدق عظامك ، ويسلمك إلى آخر .

وإذا جاء دور الدفع ، وبدر منك ما يدل على معرفتك بتسعيرة الاجور ، أدركت المقصود من كلمات الزراية والاحتقار ، واذا وجدت في هذه الأحوال أنك نسيت دفتر مذكراتك في العربة ، وعدت لتأخذه ، أشعرك بتفاهة خيال دانتى عن الجحيم!!

وليس من النظريات السفيهة أن هذا السائق يستمد وحدة الهدف وتركيز نظرته إلي الحياة من التركيب الخاص للمركبة . فديك الحظيرة هذا يجلس كأنه أبو الآلهة في مقعد عال لا يشاطره فيه أحد ، ممسكا بمصيرك بين عنانين من الجلد المتموج ، وتجلس أنت كالفأر الواقع في مصيدة ، مضحكا ، سجينا ، معدوم الحيلة ، معتزا كملك الارجواز . . . أنت يا من كان الخدم يتزلفون إليك على الأرض الصلبة! ولكي تعلن عن رغباتك الهزيلة يجب أن تمد عنقك إلى أعلى ، وتصرخ بما تريد خلال كوة ضيقة في سقف تابوتك الهزاز .

فأنت في الحنطور لست نزيلا ولكنك مجرد «محتويات» . . أنت شحنة في سفينة ، والملاك الجالس في الأعالي - البحار القدسي الأعظم - يعرف عنوانك عن ظهر قلب» .

وحدث ذات ليلة أن تصاعدت أصوات القصف والمرح من العمارة الكبيرة ، المبنية بالآجر ، التي لا يفصلها إلا باب واحد عن مقهى ماك جراي للعائلات . وبدا أن هذه الأصوات كان مصدرها مسكن آل وولش . وكان الطريق الجانبي الذي تطل عليه العمارة يعج بأشتات ممن استهواهم الحفل من الجيران ، يفتحون بينهم طريقا بين الحين والحين لرسول يحمل من بضائع ماك جراي ما يقتضيه المرح والسرور ، وكان أولئك المتجمهرون يتجاذبون أطراف الحديث دون أن يحاولوا استجلاء ما وراء هذه الوليمة من زفاف نورا وولش .

وفي الموعد المضروب تدفق المحتفلون إلى الشارع ، فأحاط بهم الضيوف غير المدعوين وتخللوهم ، ومزقت سكينة الليل صيحات الفرح والتهاني والضحكات ، والجلبة المشوشة التي بعثتها قرابين ماك جراي في هيكل الزفاف .

ووقفت بجوار الطوار عربة جيرى اودونوفان ، وكان يدعى بصقر الليل . وما من عربة قط مثل نظافة عربته ولمعانها ، غلقت أبوابها على طاقة بنفسج وعروس في ثوب الزفاف . وحصان جيرى ، وياله من حصان! إنني لا أتجاوز الواقع إذا قلت لكم أنه كان متخوما بالقرطم إلى الحد لو رأته عجوز من أولئك العجائز اللائي يتركن أطباقهن دون غسيل ، ويهرعن إلى الطريق ليغازلن صبيان المحال . . لابتسمت ، ابتسمت نعم ، عند رؤيتها إياه .

ومن خلال الحشد المتحرك النابض الصارخ ، كان يمكن رؤية قبعة جيرى العالية التي هلهلتها الرياح والأمطار عدة سنين ، وأنفه الشبيه بجزرة تحيفها الرياضيون المتأنقون من ذرية أصحاب الملايين والمتمردين من الركاب . وسترته الخضراء ذات الأزرار النحاسية التي كانت موضع اعجاب جيران ماك جراي . وكان من الواضح أن جيرى يتهيأ لممارسة مهنته ، وليحمل « شحنة » ، بل ان هذه الصورة يمكن التوسع فيها ، وتشبيه مركبته في هذه الحالة بعربة خبز ، إذا قبلت شهادة ذلك الشاهد الشاب الذي قال أن جيرى كان « يحمل بلحة من بلح الشام »!

ومن بقعة ما وسط الزحام ، أو من بين المشاة على حواشيه ،

اندفعت فتاة شابة فوقفت بجوار المركبة ، فتنبهت أعين جيرى - صقر الليل - المدربة ، لهذه الحركة ، فأدار العربة ، دورة ، قلبت ثلاثة أو أربعة من النظارة ، وكاد ينقلب فيها هو نفسه ، لولا أن ثبت قدمه في محبس صنبور حريق في الجدار . وصعد إلى مقعده الرسمي زاحفاً زحف الملاح على سارية سفينته في بحر عاصف ، ولم يكد يستقر به ، حتى تحيرت فيه حميا ماك جراي ، فقد راح يتأرجح هادئا على مؤخرة زورقه كما يرفرف العلم الصاعد على ساريته فوق ناطحة سحاب . وقال جيرى وهو يقبض على أعنة جواده :

« ادخلي يا سيدتي »

ودخلت السيدة وانصفق عليها الباب ، وفرقع الصوت في الهواء ، وتفرق الجمهور ، ومضت العربة في طريقها قدما تذرع المدينة .

ولم يكد الحصان المتخوم بالقرطم يستجمع قواه للركض ، ويتغلب على حرونه الأول حتى فتح جيرى كوة العربة ، ونادى السيدة في صوت كصوت مكبر الصوت المشروخ ، حاول أن يتلطف فيه ما يستطيع :

« إلى أين تريدين الذهاب ؟ »

وجاء الجواب رخيما مشبعا بالرضى :

« حيثما شئت »

وقال جيرى لنفسه :

« إنها نزهة إذن »

ثم اقترح عليها كأمر واقع :

« قومي بدورة حول المتنزه العام يا سيدتي ، واستمتعي بنسيمه البارد اللطيف »

وقالت الراكبة في انشراح :

« كما تريد »

وسارت العربة نحو الافينو الخامس ، فقطعت هذا الطريق الجميل مسرعة ، وجيرى في مقعده يتأرجح مزهوا ، ولكن حميا ماك جراي ما لبثت أن تقلقت في بطنه وأرسلت إلى رأسه مددا جديدا من الأبخرة ، فراح يغني أغنية قديمة ويلوح بسوطه كأنه عصا فنان .

وجلست الراكبة على وسائد المركبة منتصبة القامة ، ناظرة إلى الأبنية والمصابيح على اليمين والشمال ، وسطعت عيناها حتى داخل المركبة المظلمة كنجمتين في الشفق .

وعندما وصلا إلى الشارع التاسع والخمسين كان رأس جيرى يدور ، وأعنته تسترخي ، ولكن الجواد لف ودخل باب المتنزه ، وبدأ طوافه الليلي المألوف ، وعندئذ استلقت الراكبة على مسند الظهر مفتونة ، وراحت تتنسم الأريج النقي الحلو المتصاعد من الأعشاب والأوراق والزهور . ولما كان الحيوان الحكيم المثبت في عريش المركبة مدركا لالتزاماته ، فقد طامن من خطوه إلى الحد المطلوب ، والتزم الجانب الأيمن من الطريق .

وتغلب جيرى على ميله المتزايد للنعاس بقوة العادة ، وأزاح غطاء سفينته المترجرجة على أعراف الرياح ، وسأل السؤال الذي يسأله كل السائقين في المتنزه :

- « أتحبين الوقوف لحظة على الكازينو يا سيدتي ؟ انك تجدين فيه الشراب المنعش ، وتسمعين الموسيقى . كل إنسان يعرج عليه » .

قالت الراكبة :

« أظنه يسرني أن أفعل » .

ووقفوا على باب الكازينو ، وفتحت أبواب المركبة ، وقفزت الراكبة منها إلى أرض الكازينو رأسا ، فألفت نفسها ، واقعة في شباك موسيقى ساحرة ، مبهورة بمنظر خلاب من الأضواء والألوان . ووضع شخص ما في يدها بطاقة صغيرة مربعة مطبوع عليها رقم ٣٤ ، وألقت على ما حولها نظرة فوجدت مركبتها على بعد عشرين متراً تأخذ مكانها بين صف من المركبات والعربات والسيارات ، ورأت راقصا عاري الجذع يتقهقر نحوها ، ثم أخذت فأجلست إلى مائدة صغيرة على سياج تسلقت عليه شجرة ياسمين .

وتجلى لها أن ثمة دعوة توجه إليها بلا كلمات لتطلب شيئا ما فاستفتت كيسا صغيرا معها به مجموعة من العملات الصغيرة ، فرخص لها أن تطلب كوبا من الجعة ، وجلست تتنسم وتمتص كل شيء من هذه

الحياة الجديدة الألوان والمناظر عليها ، في هذا المكان الخيالي ، في تلك الغابة المسحورة .

وجلس على خمسين مائدة أمراء وملكات ، يرتدون أبهى ما في العالم من حرير ، ويتحلون بأجمل ما فيه من جواهر ، يلقى بعضهم نظرة فضول على عملية جيرى بين الحين والحين ، فيرون فيها شبحا ساذجا يرتدي ثوباً ورديا من ذلك النوع من الحرير الذي يطلق عليه من باب الأدب اسم الفولار ، ووجها ساذجا تشيع فيه نظرة حب للحياة حسدتها عليه الملكات .

ودار العقرب الكبير في الساعة دورتين وهي جالسة ، وراح عدد الملكات يتضاءل في عروشهن شيئا فشيئا ، منصرفات إلى مركباتهن الفخمة ، تحملهن وتمضي مقعقعة مدوية على قارعة الطريق ، وتهاوت الآلات الموسيقية إلى علبها المكسوة بالجلد المبطنة بالصوف ، وراح الخدم يزيلون مفارش الموائد من حولها ، وكأنما يقولون «اياك نعنى» للشبح الساذج الذي كاد يصبح وحيدا هناك .

ونهضت عميلة جيرى ، واقفة ، وأمسكت ببطاقتها المرموقة وقالت في بساطة :

«أثمة جديد وراء هذه البطاقة ؟ »

وأخبرها خادم انها بطاقة مركبتها ، وأن عليها أن تسلمها للرجل الواقف بالباب . وأخذها الرجل ونادى على الرقم ، وكان صف المركبات قد تضاءل إلى ثلاث فذهب أحدهم وأيقظ جيرى النائم في المركبة ، فتدفقت اللعنات من فمه وصعد إلى منظرة القبطان ، وحرك سفينته إلى الميناء ودخلت عميلته وانسابت المركبة في مسالك المتنزه الباردة متخذة أقصر طريق .

وعندما وصل جيرى إلى باب المتنزه ، ومضت في عقله بارقة ادراك على صورة شك مباغت طاف بوعيه الغائم . وخطر في خاطره شيئان ، فأوقف الجواد ، ورفع غطاء الكوة ، ودلى صوته الآلي من فتحتها كأنه مطمار من الرصاص ، وقال :

- «أريد قبل أن أخطو خطوة أخرى أن أرى أربعة دولارات ، فهل

معك النقود ؟ » وضحكت العميلة في نعومة وقالت :

« أربعة دولارات ؟ . . كلا وا أسفاه ؟ كل ما معي دوانق لا تتجاوز ربع ريال »!

وأغلق جيرى باب الكوة وألهب ظهر جواده المتخوم بالسوط . ورغم أن وقع حوافر الحصان غطى على صوت عربدته فانه لم يفرقه تماما ، وراحت اللعنات تتدافع من فمه صارخة ، مزبدة حانقة ، نحو السماء المتلألئة بالنجوم ، وأخذ صوته ينهال على المركبات المارة بجواره في لؤم ، وفمه يوزع الشتائم بذيئة مختلفة الألوان على كل شيء في الطريق ، حتى دارى وجهه حياء سائق عربة نقل كان عائداً إلى بيته ، فسمع بعض ما قال ، وكان جيرى يعرف إلى أي ملاذ يلجأ في هذه الأحوال ، فمضى إليه راكضاً جواده ما استطاع .

ووقف عند بناء يجلل مدخله النور الأخضر ، وفتح باب المركبة على مصراعيه ، وتهاوى إلى الأرض في تثاقل ، ثم صاح في جفاء :

- « هيا انزلي . . أنت! »

وهبطت عميلته وما فتئت على وجهها الساذج تلك الابتسامة الحالمة التي أشرقت عليه في الكازينو ، فقبض جيرى على ذراعها ، وقادها إلى مركز الشرطة . .!!

وقال جيرى في صوته الأحبش العامر بأنغام الشكاة والاستشهاد

« هذه يا شاويش راكبة لا . . . . »

ثم توقف عن الكلام ومسح بيد معروقة حمراء على جبينه ، وراح الضباب المنبعث من حميا ماك جراي ينقشع من عقله رويدا رويدا ، فاستأنف في وجوم :

« هذه راكبة يا شاويش أريد أن أقدمها إليك! إنها زوجتي التي تزوجتها الليلة في بيت أبيها وولش العجوز ، وفي الحق أننا قضينا برهة من الوقت عجيبة . . صافحي الشاويش يا نورا ، وهيا نرجع إلى البيت » . .!

وقبل أن تدخل نورا المركبة تنهدت من أعماق قلبها ، وقالت :

- « جيرى ، كم كنت سعيدة في هذه الساعات! »

الباب الأخضر

هب أنك كنت تتمشى في برودواى بعد العشاء ، ولديك عشر دقائق تستغرقها في تدخين سيجارك ، والمفاضلة بين شهود ذراعك ، فتلفت ، فوقع بصرك على عينين فتانتين في وجه امرأة حسناء ، تتحلى بالماس المتلألئ وتكتسي بالفراء الروسية ، ثم رأيتها تضع في يدك كعكة ساخنة . وتنتضى مقصا صغيرا تقتطع به من معطفك زراره الأوسط ، وتنطق بكلمة واحدة « متوازي أضلاع » ثم تهرول على عجل ، إلى شارع جانبي ، متطلعة إليك من فوق أكتافها بنظرات رهيبة!

لاشك أن هذه تكون مغامرة صريحة ، فهل تتقبلها ؟ كلا ، فما مثلك من يتقبل مثل هذه المغامرات!! ولعل وجهك يحمر من الضيق ، وقد ترمى الكعكة من يدك خائفا ، وتمضي قدما في برودواى ، تتحسس بخجل موضع الزرار المقطوع!! ذلك ما ستصنعه ، ما لم تكن واحدا من أولئك القلائل الموهوبين ، الذين لم تمت فيهم بعد روح المغامرة الخالصة .

إن المغامرين الاصلاء لم يكونوا كثرة في يوم من الأيام ، وأغلب من يقرأ عنهم على أنهم مغامرون ليسوا في الأكثر إلا رجال أعمال ، وفقوا إلى اختراع وسائل جديدة ، لإدراك ما كانوا يطمحون إليه من ذهب أو تصوف أو حب أو كنوز أو تيجان أو جاه . أما المغامر الأصيل فانه يمضي في طريقه بلا هدف ولا حساب ليلقى مصيره المجهول ، ويحييه ، ولعل أروع مثل له هو بطل هذه القصة .

وما أكثر انصاف المغامرين الذين يملأون العين شجاعة ومهابة ، فهم منذ أيام الحروب الصليبية إلى أيام رعاة البقر ، قد أخصبوا فنون التاريخ والقصص وتجارة الأساطير التاريخية ، ولكن كلا منهم كانت له جائزة يجري وراءها ، أو هدف يصيبه ، أو « بلطة » يشحذها أو سباق يسهم فيه ، أو رقم قياسي صغير

يصبو إليه ، أو اسم يريد تخليده ، أو مشكل يطمع في حله . . وما من بينهم مغامر أصيل .

وفي هذه المدينة الكبرى قلما تجد الغرام والمغامرة التوأمين ، إلا خارجها باحثين عن عشاق أكفاء ، وان كانا لا يفتآن يرنوان إلينا خفية ونحن نتجول في الطرق ، ويتحديان أرواحنا بشتى الأساليب .

نرفع أبصارنا فجأة ودون وعي إلى نافذة ما ، فنجد فيها وجها كأنه من الوجوه الحبيبة إلينا ، أو نسمع في الزقاق النائم صرخة الألم والفزع من بيت موصد مهجور ، وبدلا من أن ينزلنا سائق المركبة إلى ملاذنا المألوف ، يقف بنا على باب غريب ، يفتحه لنا شخص يبتسم ويدعونا للدخول ، وربما تهاوت إلى أقدامنا الورقة المكتوبة نجد فيها موعدا مع الحظ السعيد ، وقد نتبادل لغير ما سبب نظرات المقت أو المحبة أو الذعر مع غرباء يسيرون في الزحام . ويسح المطر سحة فاذا تحت مظلتنا وجه ، كأن البدر أبوه ، وكأن بني عمه الحور والولدان . وفي كل مكان نجد المغامرات التي تقع في أيدينا مهدرة ، أو موحشة ، أو مذهلة أو خفية ، أو مهلكة! ولكن القليل منا من يقتنصها ويتبعها ، فقد بلد احساسنا ما يلهب ظهورنا من سياط التقاليد ، وتمر بنا الأيام حتى نشرف على نهاية المطاف في حياة آسنة ، وتتلفت وراءنا فاذا كل نصيبنا من دنيا الغرام زوج كأب أو زواجان ، وتذكار في شارة من حرير مخبأ في درج مقفل ، ونضال مع المدفأة البخارية يطول ما طالت الحياة .

***

كان رودلف ستاينر مغامراً أصيلا ، وقلما مرت عليه ليلة لم يغادر فيها غرفته باحثا عما يهول ولا يتوقع ، وكان يخيل إليه أن أجمل شيء في الحياة قد يطالعه من وراء أول منعطف في الطريق . وكثيرا ما قادته رغبته في مغازلة المقادير ، إلى أغرب المسالك . قضى الليل كله في احدى المحطات مرتين ، وطالما وجد نفسه ألعوبة في أيدي محتالين مرتزقة أذكياء! وأضاع ذات مرة ساعته ونقوده في مجازفة شاقة ، ولكن حماسته لم تفتر قط من التقاط كل قفاز ترميه في طريقه المغامرات الحلوة .

وذات مساء كان رودلف يتمشى في طريق بحي من الأحياء القديمة بالمدينة ، وقد امتلأ الطواران بسيلين من الناس ، سيل العائدين إلى منازلهم

سراعا ، وذلك السيل القلق من تاركي منازلهم بحثا وراء الحفاوة الخداعة للمطاعم الرخيصة المتوهجة بالنور .

كان المغامر الشاب في مظهره الرائع ، يتمشى بوقار وانتباه ، ولقد كان يعمل نهاره بياعا في متجر للبيانو ، وكان يلبس ربطة عنق ، بدلا من أن يشبكها بدبوس احاطها بحلقة من الكهرمان ، وكتب ذات مرة إلى محرر مجلة يقول له ان كتاب «محنة جيونى الغرامية» كان الكتاب الذي أثر في مجرى حياته!

وسمع من وراء صندوق زجاجي على الطوار صوت أسنان تصطك بعنف ، وخيل إليه لأول وهلة أن الصوت (الذي أحس له بغثيان في نفسه) قادم من المطعم الذي وضع أمامه الصندوق ، ولكن النظرة الثانية كشفت له عن الأحرف الكهربائية للافتة طبيب أسنان تعلو الباب التالي للمطعم ، وعن زنجي عملاق يرتدي معطفاً أحمر موشى بصور غريبة ، وبنطلونا أصفر ، وقلنسوة عسكرية ، يوزع بطاقات على أولئك الذين يتقبلونها من الجمهور .

وكانت هذه الطريقة من طرق الاعلان عن طبيب أسنان مألوفة لرودلف ، وكثيراً ما مر به دون أن ينقص شيئا من ذخيرته ، ولكن الزنجي في هذه الليلة دس بطاقة في يده بشيء من الدهاء لم يسعه معه إلا أن يستبقي البطاقة ، ويبتسم لبراعة صاحبها في التوزيع .

ولم يكد يسير بضع خطوات حتى نظر إلى البطاقة دون اكتراث ، فدهش لها ، وقلبها بين يديه ، فوجد أحد وجهيها أبيض ، وعلى الوجه الآخر كلمتان مكتوبتان بالحبر : «الباب الأخضر» ، وعندئذ وجد رودلف على بعد ثلاث خطوات أمامه رجلا يرمي البطاقة التي أعطاها الزنجي له وهو مار ، فالتقطها رودلف ، فوجد اسم طبيب الأسنان مطبوعا عليها ، هو وعنوانه ، والصيغة المألوفة عن عمل الأطقم ، وتركيب الجسور والتيجان ، والوعود الفخمة بخلع الأضراس دون آلام .

ووقف بياع البيانو المغامر عند الناصية لحظة يفكر ، ثم عبر الشارع ، وارتد مسافة بناء واجتاز الشارع من جديد ، ومشى في غمرة الزحام حتى أتى الزنجي ، ودون أن يظهر أي مبالاة أخذ البطاقة التي قدمت إليه ، وراح يتفحصها بعد عشر خطوات ، فوجد مكتوباً عليها بنفس الخط الذي كتبت به

البطاقة الأولى «الباب الأخضر» ، ووجد ثلاث بطاقات أو أربعا مبعثرة على الطوار متخلفة عن مارة يسبقونه أو يلونه في الطريق ، وكانت صفحاتها البيضاء هي الظاهرة ، فقلبها رودلف ، فوجد على كل منها الأسطورة المطبوعة عن عيادة طبيب الأسنان .

لقد كان من النادر أن تشير جنية المغامرة الداهية إلى رودلف ستانير ، تابعها الاصيل ، مرتين ، ولكنها في هذه المرة قد فعلت ذلك ، فبدأ البحث في الحال .

عاد رودلف بطيء الخطا إلى حيث وقف الزنجي العملاق ، بجوار الصندوق الذي ينبعث منه صوت اصطكاك الأسنان ، وفي هذه المرة لم يعطه الزنجي بطاقة . وعلى الرغم من الزي الصارخ المضحك الذي بدا فيه ، فقد تجلى عن الزنجي ترفعه الغريزى وهو واقف حيث وقف يمنح بطاقاته بلطف لمن يشاء ، ويمنعها عمن يشاء ، مترنما كل نصف دقيقة بهمهمة تشبه همهمة قاطع تذاكر الاوتوبيس أو مغنى الأوبرا . وهو لم يضن على رودلف ببطاقة في هذه المرة وحسب ، ولكن خيل لرودلف انه يتلقى من هذا المحيا اللامع الحالك السواد نظرة باردة من نظرات الازدراء .

وأحس المغامر لهذه النظرة بلسعة ، فقد قرأ فيها اتهاما صامتا بالعجز . لقد اصطفاه الزنجي من بين الجمع الزاخر مرتين لتلقى الرسالة التي تنطوي عليها البطاقتان ايا كانت معانيهما الخفية ، وها هو ذا يحكم على روحه وذكائه بالقصور عن حمل هذا اللغز .

ووقف الشاب بنجوة من الزحام يزن بنظرة سريعة البناء الذي أدرك أنه مثوى المغامرة المتوقعة ، فوجده يتعالى إلى خمسة طباق ، فوق طابق أرضي يشغله مطعم صغير .

وبدا أن الطابق الأول - وكان مغلقا حينئذ - يحتله متجر لقبعات السيدات أو فرائهن ، وكان الطابق الثاني عيادة طبيب الأسنان ، كما بدا من الأحرف الكهربائية المضيئة . ومن فوق هذا الطابق ظهر خليط مشوش من اللوحات في عدة لغات ، يعلن عن عرافين وخياطين وموسيقيين وأطباء ، وأعلى من ذلك ظهرت الستائر المزركشة وقوارير اللبن البيضاء على أعتاب النوافذ ، لتنبئ عن مواطن السكنى في البناء .

وبعد أن انتهى رودلف من هذا التحري اندفع إلى السلم الحجري يصعده وثبا إلى داخل البناء ، ثم اجتاز طابقين على الدرج المكسو بالبساط ، ثم وقف على بسطة الثالث فوجد الممشى المؤدى إلى الردهة ينيره قنديلان ضئيلان من قناديل الغاز ، أحدهما وأبعدهما على يمينه وثانيهما وأقربهما على اليسار ، فتطلع نحو القنديل القريب ورأى تحت هالة نوره الشاحب بابا أخضر . وتردد لحظة خيل إليه فيها أنه يرى لمحة الاستهزاء الساخرة منه على وجه الزنجي موزع البطاقات ، فاندفع إلى الباب الأخضر ، ونقر عليه .

ومثل هذه اللحظات التي مرت عليه في انتظار الجواب ، تحدد ماتنجاب عنه المغامرة الاصيلة من تدافع الأنفاس ، فأي هول يستحيل خلف هذه الألواح الزجاجية الخضراء ؟ ألا يمكن أن يكون وراءها مقامرون يلعبون ، أو محتالون يتأنقون في وضع الطعم داخل الختل والخداع ، أو جمال تسبيه الشجاعة فيضع من الخطط ما يجذبها إليه ، أو خطر ، أو موت ، أو غرام ، أو يأس ، أو سخرية ؟ . . ان أي شيء من هذه الأشياء قد يستجيب لنقرة المجازف على الباب .

وسمعت من وراء الباب خشخشة ضئيلة ، تلاها انفتاح الباب ببطء عن فتاة دون العشرين ، ممتقعة اللون ، متهالكة ، لم تلبث أن تراخت قبضتها على أكرة الباب ، وترنحت أعياء ، فمدت إحدى يديها تتلمس العون ، وتلقاها رودلف ، وأرقدها على كنبة رثة بجوار الجدار . ثم أغلق الباب ، وألقى نظرة سريعة على الحجرة تحت ضوء ذبالة راقصة في مصباح من مصابيح الغاز ، وارتد إليه بصره حاملا قصة فقر مدقع ، ولكنه نظيف .

ورقدت الفتاة هامدة كأنها في غاشية اغماء ، وأجال رودلف بصره في الغرفة بقلق باحثا عن برميل ، فان الناس يجب أن يدحرجوا فوق برميل إذا أصيبوا بـ . . . كلا ، كلا ، فانما يكون ذلك للغرقى من الناس . وراح يروح عليها بقبعته ، فأفاد ذلك ، إذ انه أصاب أنفها بحافة القبعة الصلبة ، ففتحت عينيها ، ولم تكد تفعل حتى أحس الشاب ان وجهها كان هو الوجه الناقص في متحف الصور الحبيبة بفؤاده الولهان . هذه العيون السنجابية الصريحة ، هذا الأنف الصغير الاذلف[٢] ، هذا الشعر الكستنائي الذي تنعقص جدائله

١ - ذلف الأنف صغر واستوت أرنبته.

كمدادات الكروم ، هذا كله بدا له كأنه نهاية حلوة ومكافأة طيبة لكل مغامراته الساحرة .

ونظرت إليه الفتاة في هدوء ثم ابتسمت ، وسألته في اعياء :

- ألعلي أغمي علي ؟ ومنذ الذي لا يغمى عليه ؟ حاول أن تعيش ثلاثة أيام بلا قوت من أي نوع كان ، وانظر ما يكون . . ؟ »

وقفز رودلف من مجلسه وهو يقول : « انتظري حتى أعود » .

واندفع من الباب الأخضر كالسهم ، ومنه إلى السلم ، ولم يمض إلا عشرون دقيقة حتى عاد ، يدق الباب ببوز حذائه لتفتح له . وكان يحتضن بين ذراعيه مجموعة أشياء من المطعم والبدال ، وضعها على المنضدة ، من خبز إلى زبدة ، إلى لحوم باردة ، إلى كعك إلى فطائر ، إلى مخللات ، إلى جمبري ، إلى دجاجة مشوية ، إلى زجاجة حليب إلى أخرى ممتلئة بالشاي الساخن .

وقال رودلف هادرا :

« إنه لمضحك ، أن تعيشي بلا طعام . يجب أن تكفي عن عمل رهانات اختيارية من هذا القبيل . هيا إلى العشاء »!

وساعدها على الجلوس في مقعد بجوار المائدة ، وتساءل :

« أثمة كوب للشاي ؟ » فأجابت : « على الرف بجوار النافذة »

وعندما عاد بالكوب ألفاها تقضم بشراهة قطعة من المخلل اصطفتها من الكيس بغريزة المرأة التي لا تخطئ ، فخطفها منها ضاحكا ، وملأ لها الكوب بالحليب ، وقال في لهجة الأمر :

« اشربي هذا أولا ، ثم تشربين بعده قليلا من الشاي ، وتأكلين جناح الدجاجة . وإذا سلكت سلوكا حسنا فستحظين بقطعة مخلل في الغد ، والآن اسمحي لي أن أكون ضيفك وهيا إلى العشاء »!وسحب كرسيا آخر وجلس عليه . وجلا الشاي أعين الفتاة وأعاد إلى وجنتيها بعض الحمرة ، وراحت تأكل بالشراهة الفاتنة التي تتجلى على وحش محروم . وبدا عليها انها تنظر إلى وجود صاحبها الشاب وعونه اياها كشيء طبيعي ، لا تهوينا من شأن التقاليد ، ولكن عمل شخص يمنحه كربه الحق في تنحية الزيف واطاعة الغريزة ، ولكن عندما عاودتها القوة والرضا ، عاودها معها رويدا رويدا شعورها بأمالي التقاليد ، فراحت تروي له قصتها الصغيرة ، قصة واحدة من آلاف تتثاءب عنهن

المدنية كل يوم ، قصة بائعة المتجر ذات الأجر الطفيف ، الذي تهيض منه الغرامات ، لتزيد من أرباح صاحب المتجر ، والوقت الذي يعصف به المرض ، ثم فقدان الوظيفة ، وضيعة الامل ، ثم . . . نقرة المغامر على الباب الأخضر .

لكن القصة بدت لرودلف في روعة الالياذة ، أو « محنة جيونى الغرامية »! فهتف بها :

- « لا أستطيع أن أتصور كيف احتملت كل هذا! » .

قالت الفتاة بهدوء : « لقد كان ذلك أمرا مروعا! »

- « ومالك في المدينة من أقارب وأصدقاء ؟ »

- « كلا على الاطلاق! »

قال رودلف بعد صمت قصير :

- « إنني كذلك وحيد » . .

وردت الفتاة على عجل : « إذ ذلك يفرحني! »

ولأمر ما اغتبط الشاب لسماعه منها أنها فرحة ليتمه في الحياة! وتراخت أجفانها فجأة ، وتنهدت من أعماق قلبها ، وقالت : « إن النوم يغلبني ، وأشعر أني في خير حال » . . .

فنهض رودلف وتناول قبعته وقال :

« إذن أقول لك طاب ليلك ، فانك في حاجة إلى نوم طويل! »

ومد يده إليها فصافحتها وقالت :

- « سعدت مساء! »

ولكن عينيها عبرتا بفصاحة وصراحة وضعف عن سؤال ، أجابها هو عليه باللفظ فقال :

- « أجل . سأقدم إليك غدا لأرى كيف تصبحين . . ان تخلصك مني لن يكون من السهولة بمكان »!

وعندما وصل إلى الباب سألته « كيف حدث أنك قرعت بابي ؟ » كما لو أن مجيئه كان أهم في نظرها من الوجه الذي عليه جاء!

وتطلع إليها برهة تذكر فيها البطاقات ، فأحس لذكراها بلذعة غيرة مباغتة ، وساءل نفسه : « ماذا لو حدث أن وقعت نفس البطاقات في يد لصاحبها من روح المغامرة ماله هو ؟

فقرر على عجل أن يخفي عنها الحقيقة ، وأن يتركها جاهلة إلى الأبد بادراكه لتلك الحيلة الغريبة التي دفعها إليها كربها الشديد ، فقال :

– « إن واحدا ممن نستخدمهم لضبط الأوتار يعيش في هذا البناء فطرقت بابك على أنه بابه »!

وكان آخر شيء رآه في الغرفة قبل أن يغلق عليها الباب الأخضر هو ابتسامتها .

ووقف عند رأس السلم ينظر حائرا إلى ما حوله ، ثم قطع الممشى إلى آخره ، وعاد فصعد في السلم إلى الطابق التالي ليكمل دائرة بحثه الغامض ، فوجد كل باب به مطلياً باللون الأخضر .

وهبط إلي الشارع متحيرا فوجد الزنجي الغريب الزي واقفا حيث كان ، فوقف رودلف أمامه وبيده البطاقتان ، وسأله :

– « هل يمكن أن تخبرني لماذا أعطيتني هذه البطاقات ، وما هو المقصود منها ؟ »

قال الزنجي وهو يشير عبر الشارع :

– « هذا هو المقصود يا سيدي ، ولكن أظن الفصل الأول قد فاتك الآن! »

وتلفت رودلف إلى حيث أشار الزنجي ، فرأى فوق مدخل مسرح للتمثيل لوحة مكتوباً عليها اسم الرواية بأحرف من نور : « الباب الأخضر » . .!!

واستأنف الزنجي يقول :

« لقد قيل لي أنها مسرحية راقصة من أبدع طراز ، وقد منحني مخرجها ريالا لتوزيع بعض بطاقات الاعلان عنها مع بطاقات الاعلان عن الطبيب . هل تريد يا سيدي بطاقة من بطاقات الطبيب ؟ »

ووقف رودلف عند قمة الشارع الذي يعيش فيه فشرب كوبا من الجعة في مطعم واشترى سيجارا ، وخرج من المطعم بسيجاره المشتعل ، فزر معطفه ، وأزاح قبعته إلى قفاه ، وقال بجلال يخاطب قائم مصباح الشارع القريب :

– « أنا موقن مع ذلك أن يد المقادير هي التي مهدت لي سبيلي إليها » . . .

ومثل هذا القرار في مثل هذه الظروف يعطي رودلف ستاينر الحق في أن يسلك في سلك العشاق المغامرين عن يقين .

أخوات الرحمة

كانت سيارة الرحلات ذات الطابقين على وشك القيام ، وركابها الاعلون المرحون قد بوأهم مقاعدهم قيم السيارة المهذب ، وكان الشارع الجانبي الذي وقفت فيه السيارة يعج بهواة النزهة ، الذين وقفوا يتطلعون إلى زملائهم ، مبرهنين على صواب القانون الطبيعي الذي يقول أن كل كائن حي على وجه الأرض ، فريسة لكائن آخر .

ورفع الدليل المذياع ، أو قل آلة التعذيب ، وراح باطن السيارة يخب ويوضع كأنه قلب مدمن القهوة! وأخذ الركاب الاعلون يلتصقون بمقاعدهم خشية السقوط ، وصرخت سيدة تطالب بانزالها إلى الأرض . ولكن اليكم - قبل أن تقوم السيارة - ديباجة ستجلو لكم صفحة ممتعة من رحلات الحياة .

إن الرجل الأبيض يتبين الرجل الأبيض بغابات أفريقيا في مثل لمح البصر ، والأم ووليدها يتبادلان التحية الروحية في سرعة وثقة ، والكلب وسيده سرعان ما يتفاهمان عبر الخليج الضيق الذي يفصل بين الإنسان والحيوان! وما أوجز وأذكى تلك الرسائل الخاطفة التي يتبادلها العاشقان! ولكن كل هذه المناسبات لا تبعث إلا تيارا بطيئا متسكعا من التعاطف وتبادل الخواطر ، إذا قيست بمناسبة سترفع سيارة الرحلات عنها الستار ، فستعرف منها (إن لم تكن عرفت بعد) كيف يتواصل في مثل خطف البرق قلبان اثنان ، من بين قلوب أهل المعمورة ، جمعت بينهما المصادفة وجها لوجه .

***

دق الجرس ، وتحركت السيارة بعظمة ، نحو وجهتها التثقيفية المرسومة .

وجلس في المقعد الخلفي الأعلى جيمس وليامز - من ولاية ميسورى - هو وعروسه .

وأرجوك أيها القارئ أن تمسك بهذه الكلمة الأخيرة ، التي هي الكلمة العليا في ربيع الحب والحياة . فان العروس هي عبير الزهر ، ومجاج النحل ، وأغرودة البلبل ، والقطرة الأولى من طل الربيع ، وشذى قشدة الليمون على كوكتيل الوجود . إن الزوج تقدس ، والأم توقر ، ورفيقة الصيف تستطاب ، ولكن الخطيبة هي بين هدايا الزفاف ، الشيك المضمون الذي ترسله السماء عندما يزف الرجل إلى الفناء!

ومضت السيارة في طريقها ، ووقف ربان هذه النسافة الفخمة على مرقبه ، يصف لركابها مشاهد المدينة الكبيرة من خلال بوقه ، وراحوا يستمعون ، فاغري الأفواه ، مفتوحي الآذان ، لاوصافه وهي تهدر أمام أبصارهم هدير الصواعق ، ثم يستجيبون بأعينهم لتراتيل المذياع ، مذهولين ، حالمين ، مشوقين .

. . . .

ولكن دعونا نلقى نظرة على مسز جيمس وليامز ، التي كانت تدعى قبل زفافها هاتى تشالمرز ، وكانت أجمل فتاة في قريتها . فقد ارتدت ثوبا سماويا ، فزانته ، وأعارها الورد حمرة الوجنات ، أما البنفسج ، فشكرا . . . ان عينيها ليست في حاجة إليه . وكان شريط من الحرير مربوطا تحت ذقنها ، كأنما يمسك القبعة في مكانها ، ولكنك تعلم كما أعلم ، أن دبوس القبعة كان يؤدي هذه الوظيفة .

وعلى وجه مسز جيمس وليامز كانت ترتسم مكتبة صغيرة حافلة بأجمل ما في الدنيا من خواطر مكونة من ثلاثة مجلدات ، يحتوي المجلد الأول منها على اعتقادها في أن جيمس وليامز لا بأس به ، والثاني على مقال عن الحياة كمكان ممتاز ، والثالث يعبر عن يقينها أنهما وهما يجلسان في أعلى مقعد من هذه السيارة الفخمة كانا يقومان بسياحة تجل عن الادراك!!

ولعلك تكهنت بأن جيمس ويليامز كان في الرابعة والعشرين ، وقد يسرك أن تعلم أن تقديرك قد أصاب غاية السداد ، فقد كان عمره

ثلاثة وعشرين عاما ، وأحد عشر شهرا ، وتسعة وعشرين يوما ، بالتحديد ، وهو ربع القامة ، نشط ، عريض الفك ، دمث الطباع ، ناجح في عمله ، وفي شهر العسل . . .!

***

أيتها الأقدار العزيزة : لا تمنحينا مالا ، ولا شهرة ، ولا رياسة ، ولا شعرا جديدا في رؤوسنا ، وبدلا من أي منها ، اجعلينا نطوي الزمان القهقرى ، ونستعيد نتفة صغيرة من رحلة عرسنا في شهر العسل ، ولو ساعة منها أيتها الأقدار ، لعلنا نتذكر منظر العشب والشجر ، ونرى من جديد شريط القبعة الحريري تحت ذقن العروس ، حتى لو كان ما يمسك القبعة هو الدبوس . تقولين انك لا تستطيعين ؟ ليكن! وحسبنا أن نتبع هذه السيارة إذن . . .

***

كانت تجلس أمام مسز جيمس ويليامز فتاة ترتدي سترة فضفاضة حمراء ، وقبعة من القش محلاة بالأعناب والورود ، وما أقل ما يتاح لنا الحصول على العنب والورد معا ، وأسفاه ، إلا في حوانيت قبعات السيدات وفي الأحلام . وكانت هذه الفتاة شاخصة إلى المذيع بعيونها الواسعة الغزيرة الزرقاء ، وهو يعلن بصوته الهادر عن رأيه في أن أصحاب الملايين فئة يجب أن نهتم بأمرهم ، فإذا سكت لحظة عمدت إلى نوع من الفلسفة في شكل قطعة من اللبان .

وجلس على يمين هذه الفتاة شاب يقارب الرابعة والعشرين ، ربع القامة ، نشط ، عريض الفك دمث الطباع . ولكن اياك وان تشابهت الصفات بينه وبين جيمس وليامز ، أن تظنه قرويا مثله ، فأن هذا الرجل ينتمي إلى الشوارع الوعرة ، والنواصي المظلمة ، وينظر حواليه بعين متحفزة ، كأن بينه وبين الأرض التي تطؤها أقدام المارة ثأرا ، وهو يتطلع إليها من مقعده الرفيع .

وبينما ينبح المذياع بما يصف المذيع من مشاهد ، دعوني أهمس في آذانكم ، راجيا أن تستمسكوا جيدا بالمقاعد ، لأن أمورا هامة توشك أن تحدث ، ثم تبتلعها المدينة الضخمة كأنها ورقة من شريط

أخبار ذرتها الرياح!!

إن الفتاة ذات السترة الحمراء تلفتت خلفها لترى زملاءها الذين يشغلون المقعد الخلفي الأخير ، فقد فرغت من دراسة كل الركاب الآخرين .

تلاقت عيناها بعيني مسز جيمس وليامز ، وفي مثل ارتداد الطرف تبادلت الاثنتان كل ما مر عليهما في الحياة من تجارب ، وقصص ، وآمال وأوهام . وتذكر أن ذلك كله حدث في تجاوب النظرات لا أكثر ، أو دون ألفاظ ، وفي لمحة لا تسمح لرجلين أن يشهرا فيها سلاحهما للمبارزة ، أو يستعير فيها أحدهما من الآخر عود ثقاب .

وانحنت العروس على زميلتها ، وتبادلتا سيلا متدفقا من الألفاظ ، تحرك فيه اللسانان بسرعة لساني حيتين - والتمثيل مع الفارق بطبيعة الحال - واختتم الحديث بابتسامتين وعدة هزات من الرؤوس .

وفي هذه اللحظة وقف رجل أسود الثياب أمام السيارة في الطريق العام ، وقد رفع يده يستوقفها ، ولحق به من منعطف الطريق رجل آخر . وسرعان ما قبضت الفتاة ذات القبعة المحلاة بالفاكهة على ذراع رفيقها ، وهمست همسة في أذنيه ، فبرهن الشاب على قدرته على التصرف عفو الخاطر ، فقد تضاءل في مقعده ، ثم اختفى . ورآه قرابة ستة أشخاص من ركاب الطابق الأعلى ، وهو يقوم بهذه الحركة ، فدهشوا ، ولكنهم لم يقولوا شيئا ، لانهم حسبوا من اللياقة ألا يبدوا الدهشة مما لعله يكون طريقة عرفية للنزول من السيارة في هذه المدينة المربكة .

وتستر السائح الآبق وراء عربة ، ثم اختفى كورقة جرفها التيار ، بين عربة أثاث ، وعربة زهور .

وعادت الفتاة ذات السترة الحمراء فتلفتت نحو مسز جيمس وليامز ، ونظرت إلى عينيها ، ثم اعتدلت في مجلسها كأن لم يكن شيء ، في الوقت الذي وقفت فيه السيارة عندما رأى السائق بريق شارة الشرطي ، يلمع تحت معطف الرجل الذي وقف في الطريق بملابسه المدنية .

وقال المذيع للشرطي : « ما وراءك ؟ »

قال الشرطي آمرا : « أوقف السيارة دقيقة ، ان على ظهرها رجلا نطلبه ، وهو لص من فلادلفيا يدعى بنكى ماكجواير ، وها هو ذا على المقعد الخلفي » ثم التفت إلى زميله قائلاً : « عليك أن تذهب إلى مؤخر السيارة ، يا دونوفان » .

ومضى دونوفان إلى مؤخر السيارة ، وثبت عينه على جيمس وليامز . ثم قال في انشراح : « هيا أيها المقامر العتيد ، لقد وضعنا أيدينا عليك ، هيا لتعود من حيث جئت ، انها فكرة لا بأس بها أن تختبئ في سيارة رحلات ، وسأتذكر هذه الطريقة في المستقبل . . »

وقال المذيع من مذياعه في صوت لطيف :

- من الخير لك أن تنزل يا سيدي لتشرح موقفك ، فان على السيارة أن تمضي في رحلتها » .

لقد كان جيمس وليامز عاقلا ، فاتخذ سبيله بين الركاب في خطوة وئيدة ، حتى وصل إلى مقدم السيارة فهبط السلم ، وتبعته عروسه ، ولكنها قبل أن تنزل ، تلفتت إلى الخلف ورأت السائح الفار يتسلل من خلف عربة الاثاث ، ويختفي وراء شجرة على حافة المتنزه الصغير وعلى بعد لا يزيد على عشرين مترا . . .

وعندما هبط جيمس وليامز إلى الأرض واجه مطارديه بابتسامة وهو يفكر في القصة الطريفة التي سيقصها على أهل قريته ، عن الاشتباه فيه كلص ، وتريثت السيارة هنيهة واحتراما لرغبة ركابها ، الذين ما كان يمكن أن يشوقهم شيء أكثر من هذا المنظر!

وقال جيمس بهدوء حتى لا يكدر خواطرهم :

اسمي جيمس وليامز وأنا من كلوفرديل بولاية ميسورى ، ومعي رسائل تثبت أن . . . »

وقال الرجل ذو الثياب المدنية :

- « تفضل بمرافقتنا فان أوصاف بنكى ماكجواير تنطبق عليك ؟ انطباق القميص الضيق . ولقد رآك مخبر على هذه السيارة في المتنزه الكبير ، وطلب منا بالتليفون أن نحتجزك ، فان كان لديك دفاع

فاحتفظ به حتى نصل إلى المركز» .

وتطلعت إليه عروسه - عروسه التي لم يمض على زفافها إليه اسبوعان - وملء عينيها اشراق صاف عجيب ، وعلى وجنتيها حمرة لطيفة ، ثم قالت له وجها لوجه : «أتبعها في هدوء يا بنكى ، ولعل ذلك يكون في صالحك» .

وعندما تحركت السيارة ، تلفتت إليها ، وأرسلت إلى شخص ما في مقعد من مقاعدها الخلفية قبلة في الهواء . . .

وقال دونوفان :

- «إن زوجتك تمحضك النصح يا ماكجواير ، فهيا بنا الآن» .

وعندئذ جن جنون جيمس ويليامز ، فدفع قبعته إلى آخر قفاه ، وقال في غيظ وحنق :

«إن زوجتي تحسبني لصا ، وما عرفت عنك الجنون قط ، فلابد أن أكون الآن المجنون! ولئن كنت كذلك فلن يصنعوا بي شيئا ان قتلتكما كليكما في ثورة جنون!»

ونشط إلى مقاومة القبض عليه ولجأ إلى العنف ، فانطلقت الصفافير تستغيث ، وتهاوى رجال الشرطة في كل مكان ، بعضهم يقبض عليه والآخرون يفرقون الجمع الحاشد من المتفرجين .

وفي مركز الشرطة ، سأله الجاويش المناوب عن اسمه . وكان جوابه :

«ماك دودل الاحمر ، أو بنكى الشرير فقد نسيت بأيهما سميت ، وتستطيع أن تثق بأني لص ، واياك أن تنسى ، ويمكن أن تضيف أن القبض على بنكى قد تطلب خمسة من الشرطة ، فان لي رغبة خاصة في أن تظهر هذه الحقيقة في السجلات -» .

ولم تمض إلا ساعة حتى جاءت مسز جيمس وليامز مع عمها توماس المقيم بأحد الاحياء الفخمة في نيويورك ، يركبان سيارة فاخرة ، ومعهما الأدلة الدامغة في براءة البطل ، فالعالم أجمع يحب أن يختتم الفصل الثالث من أمثال هذه المسرحيات العنيفة بسيارة فخمة على الدوام .

وبعد أن وبخ المحقق جيمس وليامز بشدة على تقليده للص مسجل ، وأفرج عنه بأكرم أسلوب يمكن أن يتبع في مركز ، أعادت مسز وليامز القبض عليه ، وانتحت به جانبا ، فنظر إليه جيمس وليامز بعين واحدة ، فقد أغلق دونوفان الأخرى عندما تعلق أحد الشرطة بذراعه اليمنى ، وما كان حتى اليوم قد وجه إليها كلمة زجراو تأنيب . وقال لها في حدة :

- « ألك أن تفسري لي كيف . . . »

فقاطعته قائلة : « استمع إلي يا عزيزي ، إنها ساعة ألم ومحنة لي ولك ، ولكني صنعت ما صنعت من أجلها ، أعني الفتاة التي كلمتني في السيارة . لقد كنت من السعادة بوجودي معك يا جيم بحيث لم أجرؤ أن أضن بالسعادة على امرأة أخرى . جيم انهما تزوجا هذا الصباح ، هذين الاثنين ، ورغبت في نجاته ، وعندما كان رجال الشرطة يتعاركون معك ، رأيته يتسلل من خلف الشجرة التي اختبأ وراءها ، ويركض عبر المتنزه على ملأ الأنظار ، وهذا كل شيء يا عزيزي ، فلقد كان لزاما علي أن صنع ما صنعت » .

***

وهكذا تعرف كل عروس أختها الواقفة في مسقط الضوء الذي لا يسطع إلا مرة في حياة المرء ، ولوقت قصير! ان الرجل منا لا يدرك أنه في عرس إلا عندما يرى اكليل الزفاف ، ولكن العروس تعرف أختها في ومضة عين ، فيسرى بينهما تيار من الرضا والتفاهم ، بلغة لا يفقهها رجل ولا تدركها أرملة .

غرام سمسار

سمح بتشر كاتم الأسرار في مكتب هارفى ماكسويل سمسار البورصة ، للمحة من لمحات الاهتمام والدهشة ، أن تشيع في محياه المجرد من كل تعبير ، عندما اقتحم مخدومه المكتب في منتصف الساعة التاسعة ، مصحوباً بكاتبة الاختزال الشابة ، واندفع ماكسويل إلى مكتبه كمن يريد أن يقفز من فوقه ، وهو يقول في اقتضاب ظاهر :

- «صباح الخير يا بتشر» .

ثم ذاب في تل الرسائل والبرقيات التي كانت في انتظاره على المكتب .

لقد كانت السيدة الشابة تشغل وظيفة الكاتبة المختزلة لماكسويل منذ عام ، وكانت جميلة جمالا لا صلة بينه وبين فن الاختزال بالتأكيد! كلا ولم يكن مستمدا من أبهة الزينة أو التجميل! كما كانت تتحلى بقلائد أو أساور أو أقراط . وما كان يبدو عليها هيئة من تتوقع قبول دعوة للغداء . وكان ثوبها الرمادي على بساطته منسجما على جسمها بدقة واخلاص . ومن قبعتها الأنيقة التي تشبه العمامة السوداء ، انتشر جناح ببغاء أخضر مشرب بلون الذهب . وكانت في هذا الصباح بالذات تشع اشعاعا لطيفا بالنضرة والحياة ، وكانت عيناها تبرقان بريق الأحلام ، ووجنتاها مضرجتان بحمرة الخوخ ، وكان محياها يعبر عن سعادة تشوبها حلاوة الذكريات .

ولاحظ بتشر الذي لم يفارقه عجبه بعد ، خلافا بينها اليوم وبينها في أي يوم آخر ، فهي بدلا من أن تمضي رأسا إلى الحجرة المتصلة بحجرته ، والتي كان فيها مكتبها ، ظلت تتباطأ في الردهة ، مترددة ، بل انها اقتربت من مكتب ماكسويل ، كمن تحاول أن تسترعي نظره

إلى وجودها .

ولكن الرجل الذي جلس إلى هذا المكتب ، لم يعد بشرا ، ولكنه استحال إلى آلة دائرة مشغولة ، تئز عجلاتها دون توقف .

وسأل مكسويل بحدة :

« حسنا . . . ماذا تريدين ؟ »

وبدت رسائله المفتوحة على المكتب الحافل كأنها جبل من الثلج الزائف على مسرح تمثيل .

وقالت كاتبة الاختزال ، وهي تنصرف عنه باسمه :

« لا شيء »!

واتجهت إلى كاتم الأسرار تقول :

« مستر بتشر . هل ذكر مستر ماكسويل شيئا بالأمس عن استخدام كاتبة جديدة للاختزال ؟ »

وأجاب بتشر :

« أجل لقد فعل ، أنه أمرني أن أحصل على كاتبة جديدة ، وقد اتصلت مساء البارحة بمكتب الاختزال ليرسل بعض نماذج من فتياته هذا الصباح . وها نحن أولاء الآن في العاشرة إلا ربعا ، ولم تظهر قبعة نسائية بعد ، ولا طقطق فم بلبان الاناناس »

قالت السيدة الشابة :

- « إذن أعمل اليوم كالعادة حتى تجيء بديلتي لتملأ الفراغ »

ومضت إلى مكتبها فورا فعلقت على المشجب المألوف قبعتها ذات العمامة السوداء ، والريش الأخضر المذهب ، من جناح الببغاء .

وأولئك الذين لم يروا منظر سمسار بورصة مشغول في مانهاتان ، لا يمكن أن يزعموا أنهم علماء بالأجناس البشرية . إن الشاعر يتغنى « بالساعة الحافلة في الحياة المجيدة » ، وساعة السمسار ليست حافلة فقط ، ولكن الدقائق والثواني نفسها لا يكون فيها مجال لأي عمل جديد .

وكان هذا اليوم أحفل أيام هارفى ماكسويل بالعمل ، وراح جهاز الأخبار ، ينفض بطقطقته المألوفة أشرطته المكتوبة ، وأصيب تليفون

المكتب ، وينادون هارفى من خلف السياج أحيانا في مرح ، وأحيانا في حدة أو خبث أو هياج . وطفق صبيان الرسائل يدخلون ويخرجون حاملين الرسائل أو البرقيات ، والكتبة يقفزون من هنا إلى هناك كبحارة هبت عليهم عاصفة . وحتى بتشر تداعت في عضلات وجهه ملامح كملامح الاحياء .

وكانت البورصة زوابع ، وانهيارات ، وعواصف جليدية وجبال وثلج وبراكين . وهذه الظواهر كانت تنعكس بصورة مصغرة على مكتب السمسار . وأسند ماكسويل ظهر مقعده إلى الجدار ، وراح يدير الأعمال بمهارة شخص يرقص على أطراف قدميه ، يثب من جهاز الأخبار إلى التليفون ، ومن المكتب إلى الباب بخفة البهلوان .

وفي وسط هذا الخضم المتلاطم أحس السمسار فجأة أن على مقربة منه هالة من الشعر الذهبي المعقوص تحت مظلة مائلة من البنفسج وريش النعام ، من تحتها معطف من جلد عجل البحر الزائف ، وعقد من خرز في حجم الجوز ، ينتهي بقلب من الفضة يتدلى حتى يكاد يصل إلى الأرض ، ورأى فتاة شابة تائهة بين هذه الملحقات ، يقدمها له بتشر قائلاً :

- « سيدة من مكتب الاختزال ، ترغب في الحصول على الوظيفة الشاغرة »

ودار ماكسويل في مقعده نصف دورة ، ويداه ممتلئتان بالأوراق وأشرطة الأخبار ، ثم تساءل في عبوس :

- « أية وظيفة ؟ »

قال بتشر : « وظيفة كاتبة الاختزال . لقد كلفتني بالأمس أن أتصل بالمكتب ، وأطلب واحدة لمقابلتك هذا الصباح »

قال ماكسويل :

« ألعلك فقدت صوابك يا بتشر . لماذا أطلب منك هذا الطلب ؟ إن مس ليسلى كانت وما زالت موضع رضاي التام طوال عملها هنا منذ عام . والوظيفة شاغرة هنا يا سيدتي . وأنت يا بتشر عليك أن تسحب من المكتب هذا الطلب ، ولا تدخل علي أحدا منهن بعد الآن » .

وغادر القلب الفضي المكتب ساخطا ، يتآود في مشيته ، ويتخبط عامداً بكل ما يمر به من أثاث . وقضى بتشر لحظة يصف فيها لعامل الأرشيف مدى ما وصل إليه «العجوز» من فقدان للذاكرة ونسيان يزداد على الأيام .

وازداد العمل توترا وشدة وعجلة ، وتبعثرت على الأرض عدة أسهم كان بعض عملاء ماكسويل قد استثمروا كثيرا من أموالهم فيها ، وترددت أوامر الشراء والبيع رائحة غادية من المكتب واليه ، تردد العصافير ، وكثير من أسهمه هو تعرض للبوار ، فراح يعمل كآلة دقيقة قوية جبارة ، تدور في حزم ، وبلا تردد ، وبأقصى ما لها من طاقة ، وأشد ما تستطيعه من سرعة . يقول الكلمة في وقتها ، ويبدي الرأي في أوانه ، ويعمل العمل في ابانه بدقة الساعة . إنها دنيا من المال تزخر بالأسهم والسندات والرهون والقروض والضمانات والفروق ، دنيا لا مجال فيها لنزوات الطبيعة أو عواطف البشر .

وعندما اقترب موعد الغداء كان الهدير قد بدأ يتطامن هونا ما ، وكان ماكسويل يقف بجوار مكتبه عامر اليدين بالمذكرات والبرقيات ، معلقا قلمه على أذنه اليمنى ، مغشى الجبين بخصلات من شعره المهوش ، والنافذة مفتوحة لأن الربيع المحبوب كان قد بدأ يرسل نسيمه الدافئ إلى مراصد الوجود .

ودخل عبر النافذة أريج حائر عطر يكاد يغنى شذاه . . . أريج حلو رقيق مستمد من زهر البنفسج ، ما كاد يشمه السمسار حتى وقف لا يتحرك ولا يريم ، فأن هذا العبق كان عطر مس ليسلى المفضل ، كان عطرها هي من دون الناس .

وكأنما جسدها هذا الشذى أمامه في كل نضرتها ، فلم تلبث دنيا المال أن استحالت في عينه إلى هباء ، وهي مع ذلك على بعد عشرين خطوة في الحجرة المجاورة .

وقال ماكسويل يخاطب نفسه في صوت مسموع :

«لقد آن الأوان ، وسأخطبها اليوم . ترى كيف لم أفعل ذلك من قبل ؟»

واندفع بعنف إلى الغرفة الداخلية فوقع على مكتب كاتبة الاختزال .

ونظرت إليه باسمة ، تضرج وجنتيها حمرة حقيقية ، وتمتلئ عيناها عطفا وصراحة . وأسند ماكسويل مرفقه على مكتبها ، وما زالت يداه ممتلئتين بالورق ، والقلم معلقا على أذنه .

وقال في عجلة :

- « مس ليسلى . ليس لدي إلا لحظة أضيعها ، وأريد أن أقول لك شيئا في هذه اللحظة . هل تتزوجينني ؟ انني لم أجد من وقتي فراغا أبادلك فيه الحب كما يفعل الناس ، ولكني أحبك عن يقين . أجيبي بسرعة أرجوك ، فان أصحابنا يتألبون على سل الروح من شركة الاتحاد الباسيفيكي » .

وقالت السيدة الشابة مذهولة وهي تنهض من مجلسها وتحملق فيه : « ما هذا الذي تقول ؟ »

قال ماكسويل في حدة : « ألا تفهمين ؟ أريد أن أتزوج منك . إني أحبك يا مس ليسلى ، وقد كان علي أن أخبرك من قبل ، وهأنذا أسترق دقيقة من وقتي عندما هدأ سيل العمل قليلا . إنهم يدعونني إلى التليفون الآن . استمهلهم لحظة يا بتشر . مس ليسلى ألا تتزوجينني ؟ »

وسلكت كاتبة الاختزال سلوكا عجيبا . فقد بدا عليها أولا أنها غارقة في الذهول ، ثم انهلت الدموع من عينيها الحائرتين ، ثم ابتسمت كما تبتسم الشمس من وراء السحاب ، ثم مدت ذراعا من ذراعيها فطوقت به عنق السمسار في حنان ، ثم ترفقت به وهي تقول :

- « إني أدرك الآن ، انه ذلك العمل المضني الذي ينزع من رأسك في هذه اللحظة كل ما عداه . لقد أرعبتني في البداية . . . ألا تتذكر يا هارفى أننا تزوجنا البارحة في الساعة الثامنة من المساء في الكنيسة الصغيرة القائمة على ناصية الشارع ؟ »

فضولي

ثمة شيئان أو ثلاثة كنت أريد معرفتها . ولما كنت لا أكترث بالمغامرات ، فقد بدأت أتقصى كنه هذه الأشياء .

واستغرقت أسبوعين لمعرفة ما يحمله النساء في حقائبهن ، ثم رحت أسأل عن سبب استعمال حشيتين على السرير ، وقد قوبل هذا السؤال بالشك في البداية ، لأنه بدا كأحجية ، وعرفت في النهاية أن مرد ذلك إلى تخفيف حمل النساء اللائي يعددن الفراش . وبلغ من حمقي أنني رحت ألح ، راجيا أن أعلم لماذا ، ما دام الأمر كذلك ، لا تتساوى الحشيتان في أكثر الأحيان ، فقوبل إلحاحي بالإهمال . .

وكانت الجرعة الثالثة التي كانت نفسي ظامئة إلى احتسائها من معين المعرفة ، هي معرفة المعنى المراد بالفضولي . ان هذه الشخصية نمط من أنماط الناس يدق على فهمه . والواجب يحتم علينا أن نكون فكرة راسخة عن كل شيء ، حتى لو كانت فكرة خيالية ، قبل أن نقول اننا أدركناه .

إن في ذهني صورة واضحة حتى للأشخاص الرمزيين ، ولكن خيالي يخونني عندما أروضه على تصور شخصية الفضولي! وكل ما كنت أتخيله فيه أن له خدا مصعرا وثيابا أنيقة . وسألت عنه مخبرا صحفيا ، فقال لي :

– « إنه نمط من الناس بين السيد والصعلوك ، وبين رواد المحافل الاجتماعية ورواد حلبات الملاكمة . إني حائر كيف أصفه لك بدقة ، ولكنك تراه في كل مكان يدس أنفه في أي عمل . . أجل انه نمط قائم بذاته ، يغير ثيابه كل ليلة ، وينادي كل نادل في المطعم باسمه ، ولكنك لا تراه عادة مع امرأة ، وإنما تراه وحيدا أو مع رجل آخر . . . »

وتركني صديقي المخبر الصحفي ، ومضيت في بحثي قدما . . وكانت أنوار مسرح الريالتو تتألق من ٣١٢٦ مصباحا كهربائيا . . وكان الناس يغدون ويروحون ، ولكن لم يستوقف نظري أحد منهم . نعم ان عيونا مستهترة كانت تحملق في ، ولكن دون ايذاء .

وكان الحشد المؤلف من ذاهبين إلى العشاء أو الشراب ، ومن عاملات ، وقسس ، وشحاذين ، وممثلين ، ولصوص ، وأصحاب ملايين ، وغرباء ، يسيرون من حولي مسرعين ، أو متثاقلين ، أو متجسسين ، أو مترنحين ، أو منفلتين ، فلا ألقى إليهم بالا ، لأني أعرفهم جميعا بسيماهم ، وأقرأ ما في قلوبهم ، وليست لي بهم حاجة ، فقد كنت أبحث عن فضولي ، من هذا النمط الخاص ، وإذا تاه مني في الزحام ، كان هذا خطأ كبيرا . .

ولكن دعونا نجد في البحث . ان رؤية أسرة تقرأ صحف الأحد شيء سار ، وانك لترى أفراد الأسرة لكل منهم شأن ، فالأب يحملق في الصفحة التي صورت فتاة تقوم برياضتها أمام نافذة مفتوحة ، وهي راكعة . . ولكن ما لنا ولهذا . . ؟ والأم مشغولة بايجاد الحروف المحذوفة في كلمة نيو . . يو . . ك . والبنات الكبار يقرأن الصفحة المالية ، ليبحثن فيها عن أخبار شاب معين ، قيل في صحف الأحد الماضي أنه نال حظا كبيرا في إحدى شركات شراء الأسهم والسندات . والابن الأكبر البالغ من العمر ثمانية عشر عاما والذي يتعلم في إحدى مدارس نيويورك الشعبية ، مغرق في قراءة مقال اسبوعي عن طرق اصلاح القمصان القديمة ، لأنه يطمع في نيل جائزة الخياطة في الامتحان النهائي . .

وكانت الجدة تقرأ في الملحق الفكاهي للجريدة منذ ساعتين . . والرضيعة الحابية تتعثر بخير ما تلقاه من الاثاث . ولقد حاولت أن أطنب في وصف هذا المشهد من القصة ، لأستعيض به عن اغفال مشهد آخر ، يستحسن اغفاله ، لعلاقته بالمسكرات .

فقد ذهبت إلى حانة لا . . . وعندما كانت تمزج ، سألت الرجل الذي يترصد للملعقة الصغيرة التي يقلب بها الويسكي ليدسها في جيبه

عندما تفرغ من أداء عملها . . سألته عما يفهم من كلمة فضولي من حيث الاسم والصفات ، والسمات ، فقال في حذر :

- «إنه شخص حازم يعرف كيف يقضي لياليه! . .»

فشكرته وانصرفت ، حتى وجدت فتاة من فتيات جيش الخلاص ، تمس بصندوق التبرعات الذي حملته ، جيب صدارى ، فسألتها :

- «هل صادفك فضولي يوما ما أثناء طوافك . . ؟»

فأجابت ضاحكة :

- «أظنني أعرف الشخصية التي تشير إليها ، فنحن نصادفها في نفس الأمكنة ليلة بعد ليلة . إن هؤلاء الفضوليين هم حرس الشيطان ، ولو أن جنود أي جيش كان لهم من الحمية والاخلاص ما لهؤلاء ، لكان جيشا ممتازا . اننا نختلط بهم ، فنحول بعض دراهمهم من خدمة الشيطان إلى خدمة الله» .

وهزت صندوقها ثانيا ، فوضعت به درهما .

ولقيت صديقا من أصدقائي يعمل ناقدا ، وهو يهبط من عربة على باب فندق كبير ، وبدا لي أنه غير مستعجل ، فألقيت عليه السؤال ، فأجابني عنه بطلاقة كما توقعت ، إذ قال :

- «ما من شك أن ثمة نوعا من الفضوليين في نيويورك ، فان هذا الاسم مألوف لدي ، ولكن لم يطلب مني قط أن أقوم بتعريفه . ولقد يشق علي أن أصوره لك صورة كاملة . بيد أني أستطيع أن أقول لك بالبداهة انه حالة مستعصية من حالات مرض نيويوركي معين ، هو حب الاستطلاع . ان الحياة تبدأ عنده في الساعة السادسة من كل مساء . . وهو شديد الاهتمام بتقاليد اللباس والسلوك ، وعندما يدس أنفه فيما لا يعنيه ، يستطيع أن يلقى دروسا في ذلك على الهرة والغراب . وهو الرجل الذي تحدى البوهيميين أنفسهم من أقصى المدينة إلى أقصاها ، فهو على الدوام يتنسم بأنفه أثر شيء جديد ، إنه مزيج من حب الاستطلاع والقحة والوجود في كل مكان . من أجله صنعت العربات الأنيقة ، ومن أجله خلق السيجار ذو الطوق المذهب ، ومن أجله وجدت محنة الموسيقى أثناء العشاء . . ولئن كان عدد المرضى بهذا المرض

قلائل ، إلا أنهم يثبتون وجودهم بكل مكان! »

« إني سعيد باثارتك لهذا الموضوع . فقد كنت أحس بأثر هذه الآفة الليلية في مدينتنا . . ولكني لم أفكر في تحليلها من قبل . . وقد كان من الواجب أن يوضع الفضولي في مكانه منذ زمن طويل . إن تجار الخمر والأزياء يهتدون بهديه ، والموسيقيين يعزفون له من الألحان ما يشاء ، وهو يقوم بجولاته كل ليلة في حين أنك أنت وأنا لا نرى الفيل إلا مرة كل أسبوع . . وعندما يهاجم رجال الشرطة حانوت سجائر[١] ، يغمز بركن عينه إلى الضابط عارفا بالأرض التي تحت قدميه ، وينصرف بسلام ، في حين أنك أنت وأنا نبحث بين أسماء الكبراء أو النجوم عن شخص يشفع لنا عند الشرطة » .

ووقف صديقي الناقد عند هذا الحد يلتقط أنفاسه ، ليبدأ سيلا جديدا من الصفات . فانتهزت الفرصة ، وصحت في فرح :

– «لقد وضعت الفضولي في مكانه ، وقد رسمت له صورة حية في متحف الأنماط والشخصيات بهذه المدينة . ولكني أحب أن ألاقيه وجها لوجه ، وأن أعرفه عندما تقع عيني عليه ، فأين ألقاه ، وكيف أتبينه ؟ »

ومضى الناقد فيما كان يقول ، دون أن يبدو على وجهه ما يفيد استماعه للسؤال ، وكان سائق العربة التي جاء فيها ينتظره ليحصل على أجره . .

– « إنه مثل أعلى لدس الانف في كل شيء ، وهو الخلاصة النقية للمطاط ، وهو الروح الصافية التي لا يمكن ردها ولا تجنبها لحب الاستطلاع . وإن أنفاسه لمفاجآت ، وإذا أحاطت خبرته بموضع ما ، بحث لها عن مجال جديد بلجاجة وإلحاح! »

واعترضته قائلا :

– «عفوا . . أتستطيع أن تدلني على واحد . . ؟ إنه شيء جديد لدي ، ويجب أن أدرسه ، وسأقلب المدينة رأسا على عقب لأجده ، وأكبر ظني أن برودواى هذه هي موطنه المختار » .

قال صديقي :

---

١ – يبدو أن القصة مكتوبة في الوقت الذي كانت الخمر محرمة فيه في أمريكا ، وكانت حوانيت السجائر تستعمل لتهريبها.

– « إنني سأتعشى هنا ، فتعال معي ، وإذا وجدت فضوليا فسأدلك عليه ، فاني أعرف أكثر المترددين على هذا المكان » .

فقلت : « شكرا فلن أتعشى الآن ، اني سأجد في أثر طريدتي ولو طفت في كل أرجاء المدينة الليلة » .

وتركت الفندق ، ومشيت في برودواى ، وأجد للحياة أريجا ، وللهواء الذي أتنسمه متعة ، في هذا الطراد لذلك النمط من الناس الذي أبحث عنه . وكنت أحس البهجة بوجودي في مثل هذه المدينة العظيمة ، المتعددة الصور . وظللت أسير على مهل وفي شيء من الخيلاء . . . وقلبي مزهو بأنني ابن لنيويورك الفخمة . . لي نصيب من بهجتها وملذاتها ومكانتها ومجدها الاثيل .

وانعطفت لاجتاز الطريق ، فسمعت شيئا يطن في أذني طنين النحلة ، ثم رحت في غيبوبة ، سبحت فيها مع الملائكة في رحلة ممتعة . وعندما فتحت عيني خيل إلي أني أشم رائحة بنزين ، وقلت في صوت مسموع :

– « أترى الرحلة انتهت ؟ »

ووضعت ممرضة كفها التي لم تكن شديدة النعومة على جبيني الذي لم يكن به أثر للحمى مطلقا ، ثم جاء إلي طبيب شاب فوضع في يدي صحيفة من صحف الصباح ، وقال متمتما في مرح :

– « لعلك تريد أن تعرف كيف وقع الحادث ؟ »

وقرأت المقال ، وكان عنوانه يبدأ من حيث سمعت الطنين في أذني الليلة الماضية ، واختتم المقال بهذه الكلمات :

– « . . . إلى مستشفى بلفى حيث قيل أن اصابته ليست ذات بال . ويبدو أنه مثل صريح لذلك النمط من الناس الذين نسميهم الفضوليين » .

بعد عشرين عاماً

كـان الشرطي يتمـشى في دركـه ، بخطو عنيف ، ومـا كـان هذا العنف تظاهرا ، ولكنه عـادة ، ومـا كـانـت به من حـاجـة للتظاهر ، والنـاس ندرة في الطريق ، فقد كانت الساعة العاشرة مساء ، والشـوارع تكاد تخلو من روادها تحت لفحات الريح الباردة ، وما فيها من بوادر المطر .

كان يختبر الأبواب وهو يمر بها ، ويهز عصاه في حركات لطيفة معقدة ، ثم يلقى نظرة واعيـة على الطريق الهادئ بين الحين والحين . . وكـان بهيكله القوي واختياله الطفيف ، صورة باهرة لحراس الأمن والسلام . وكان الحي كله من الاحياء التي لا تسهر ، ولقد ترى فيه بين الفينة والفينة نورا ينبعث من حانوت سجائر ، أو مطعم يعمل طوال الليل ، ولكن معظم الأبواب كانت أبواب متاجر أو مكاتب ، مر عليها منذ أغلقت وقت طويل .

وعندما وصل الشرطي إلى منتصف بناء معين اتأدت خطاه فجأة ، فقد وجد في مدخل مظلم لمتجر حدائد ، رجلا يستند إلى الجدار ، ويضع بين شفتيه سيجارا لم يشعل ، ولم يكد الشرطي يتجه نحوه حتى بادره الرجل بالحديث وقال له في لهجة الواثق .

- « اطمئن يا شاويش ، اني أنتظر صديقا واعدته منذ عشرين عاما على هذا اللقاء ، ولقد يبدو ذلك مضحكا كما ترى ، ولكني مستعد للايضاح إذا شئت أن تطمئن إلى أن كل شيء في أمان . فمنذ ذلك الحين كان في موضع هذا المتجر مطعم » .

قال الشرطي :

- « لقد أزيل منذ خمسة أعوام » . .!

وأوقد الرجل عود ثقاب ، أشعل منه سيجاره ، فبدا في ضوئه وجه أصفر مربع الاشداق ، ذو عيون صارمة ، وندبة صغيرة بيضاء على مقربة من حاجبه الأيمن ، وتألقت ماسة ضخمة من دبوس على ربطة عنقه في وضع غريب ، ثم

قال :

- «في مثل هذه الليلة منذ عشرين عاما تعشيت في ذلك المطعم مع جيمي ويلز أخلص أصدقائي ، وأنبل رجل في الوجود . ولقد نشأنا معا في نيويورك ، وكنت في الثامنة عشرة ، وكان جيمي في العشرين ، وكنت على أن أرحل في صبح اليوم التالي مهاجرا إلى الغرب ، باحثا عن الثروة ، أما جيمي فما كانت قوة تستطيع أن تزحزحه من نيويورك إذ كان يراها خير مكان على وجه البسيطة . وتعاهدنا في تلك الليلة على أن نتلاقى بعد عشرين عاما في نفس الوقت ونفس المكان ، أيا كانت ظروفنا ، ومن حيثما شطت بنا الديار . وتوقعنا أننا في غضون العشرين عاما يكون كل منا قد قرر مصيره ، ونال حظه من الثراء ، كيفما كان هذا الحظ والمصير . . » .

وقال الشرطي :

«يا له من شيء مثير ، وان بدا لي ما بين اللقائين كأمد طويل! ألم تسمع قط عن صديقك منذ كان الفراق ؟ »

فقال أجل :

«أجل لقد تراسلنا ولكن إلى حين ، ولم يمض إلا عام أو عامان حتى كان كل منا يجهل عن صاحبه كل شيء . فالغرب كما تعلم تيه هائل ، ظللت أخب جاهدا وأضع فيه ، ولكني واثق أن جيمي سيلاقيني الليلة ان كان على قيد الحياة ، فقد كان دائما أخلص وأوفى صديق على وجه الحياة ، ولن ينسى أبدا . ولقد قطعت ألف ميل لأقف الليلة في مدخل هذا الباب ، وما أبخسه من ثمن إذا جاء الصديق القديم . . »

وأخرج الرجل ساعة جميلة رصع غطاؤها بقطع صغيرة من الماس ، ثم قال :

- «انها الآن العاشرة إلا ثلاث دقائق ، ولقد كانت الساعة العاشرة بالدقيقة عندما افترقنا في نفس هذا الموضع على باب المطعم! »

وسأل الشرطي :

- «لعلك نجحت في الغرب . . ؟ »

- «أجل ، وكل رجائي أن يكون جيمي قد نال ولو نصف ما نلته من توفيق . إنه على طيبته لم يكن من ذلك النوع المجاهد الطموح . وجمع الثروة ليس بالأمر اليسير ، فقد كان علي لأجمع ما جمعت منها أن أنافس قوما يتوقدون ذكاء . ان المرء ليضيع في نيويورك ، في حين أنه يستطيع أن يقهر

الغرب ولكن بحد السيف » .

وهز الشرطي عصاه وخطا خطوة أو خطوتين ثم قال :

– « سأمضي لشأني ، وآمل أن يوافيك صاحبك . أتراك ترحل إن لم يحافظ على موعده بالدقيقة ؟ »

فقال الآخر :

« ما أظن ذلك ، وسأنتظره نصف ساعة على الأقل ، وإذا كان جيمي حيا في أي مكان على سطح الأرض فلن يتأخر ، وداعا يا شاويش »

قال الشرطي وهو يستأنف جولته ، ويختبر أقفال الأبواب كما كان يفعل :

– « طبت مساء يا سيدي . . »

وكان المطر الآن ينهل رذاذا ، والريح قد استحالت نفحاتها الباردة ، إلى صرصر عاتية ، وحث المشاة القلائل في الحي خطاهم في صمت وكآبة ، رافعين بنائق معاطفهم ، ودافنين أيديهم في الجيوب ، وفي مدخل متجر الحدائد كان الرجل الذي قطع ألف ميل ليفي بوعد مع صديق صباه ، يكاد تحقيقه يستحيل ، واقفا يدخن سيجارة ، وينتظر . .!!

وطال انتظاره حوالي عشرين دقيقة ، ثم ظهر شخص مديد القامة يعبر الطريق مسرعا من الجانب الآخر ، ويرتدي معطفا طويلا رفع بنيقته حتى غطت أذنيه ، ويتجه رأسا صوب الرجل المنتظر ، حتى إذا أتاه سأله في شيء من الشك :

– « أهذا أنت يا بوب ؟ »

وقال الرجل الواقف بمدخل الباب :

– « جيمي ويلز ؟ »

فصاح القادم الجديد في تعجب وهو يصافح صاحبه بكلتا يديه :

– « يا لله! انه بوب بعينه ، ماض كأنه سيف القضاء . لقد كنت موقنا أنني سأجدك إذا كنت ما زلت على قيد الحياة . ما أطول حقبة عشرين عاما من عمر الزمان . لقد أمحى المطعم القديم ، وكم كنت أود لو كان باقيا لنتعشى فيه من جديد يا بوب . ترى كيف عاملك الغرب أيها الخل العجوز ؟ »

– « خير ما يستطيع ، لقد أعطاني كل ما سألته . لشد ما تغيرت يا جيمي . ما حسبتك قط بهذا الطول . .! »

– « لقد ازداد طولي قليلا بعد العشرين »

- « وهل وقفت في نيويورك يا جيمي ؟ »
- « نوعا ما . إن لي مركزا في إحدى مصالح المدينة . والآن هيا بنا يا بوب ، وتعال معي إلى مكان أعرفه ، فنستعيد هناك ذكرى الليالي الخوالي . .! »

ومشى الرجلان يتأبط كل منهما ذراع صاحبه ، وبدأ الرجل القادم من الغرب يروي قصة حياته ، مغرورا بما لقي من نجاح ، والرجل الآخر ينصت إليه وهو غاطس في معطفه ، باهتمام .

وكان على ناصية الطريق مقهى يتلألأ بالأنوار الكهربائية ، فما أن أتياه حتى حملق كل منهما في وجه صاحبه ، وكأنهما في هذه النظرة على ميعاد .

ووقف الرجل القادم من الغرب في مكانه بغتة ، ثم سحب ذراعه من ذراع صاحبه ، وصاح :

- « انك لست جيمي ويلز . ولقد تكون العشرون عاما دهرا طويلا ، ولكنهما مهما طالت لا تغير أنفا رومانيا أشم إلى هذا الأنف المدبب الصغير . . »

قال الرجل المديد القامة :

« بيد أنها تكفي أحيانا لتحويل رجل طيب إلى رجل شرير . انك مقبوض عليك منذ عشر دقائق يا بوب ، وقد أبرقت لنا شيكاغو تقول انك ربما هبطت علينا ، ولها معك حساب . وأظنك ستمضي معي في هدوء ؟ أليس كذلك ؟ ان من الحكمة أن تفعل ، ولكن قبل أن نذهب إلى مركز الشرطة أحب أن أعطيك رسالة طلب مني أن أسلمها إليك . ولك أن تقرأها هنا في ضوء هذه النافذة ، فانها من الشرطي ويلز » .

ونشر الرجل القادم من الغرب الورقة الصغيرة المطوية التي أعطيت له ، وكانت يده ثابتة عندما بدأ القراءة ، ولكنه لم يكد يفرغ من قراءتها حتى ارتعشت يده رعشة خفيفة . وكانت الرسالة قصيرة :

- « بوب : لقد كنت في ملتقانا الموعود في الوقت المحدد ، وعندما أوقدت عود الثقاب لتشعل سيجارك ، رأيت فيك وجه الرجل المطلوب في شيكاغو ، ولأمر ما عز علي أن ألقي القبض عليك ، فانتحيت ناحية ، واستحضرت رجلا في ثياب مدنية يحمل عني هذا الحمل الكئيب »!!

الغرفة المفروشة

كان أكثر سكان ذلك الحي الوضيع من أحياء (الوست أند) المبنى باللبن الأحمر ، مثل الزمان في التقلب والقلق والادبار ، لا بيوت لهم ، ومع ذلك فلكل منهم مائة بيت ، يهاجرون من غرفة مفروشة إلى غرفة مفروشة ، موقوتي المأوى ، والحب ، والتفكير ، يتغنون «بالبيت . . . البيت السعيد» ويضربون في الأرض يحملون في صندوق من الورق المقوى ما يملكون من قوت ومتاع .

ولما كان هذا الحي يقطنه ألف من الناس ، فينبغي أن تكون وراءهم ألف قصة ، وقد يكون أكثرها سخيفا ، وان كان من العجيب ألا يخطر شبح أو آخر بين هذا الموكب من الرحل الهائمين .

وعندما ساد الظلام الحي ذات مساء ، كان أحد الشبان يسير بين تلك «القصور الحمراء» يدق أجراسها واحدا بعد الآخر ، حتى أتى الباب الثاني عشر ، فتخفف من حقيبته الهزيلة ، وراح يزيل عن كفيه وجبهته ما علق بها من غبار ، بينما كان رنين الجرس يسمع صداه الخافت قادما من مكان سحيق ، ولم يلبث حتى فتح الباب ، وظهرت ربة البيت ، فما أن وقع بصره عليها حتى خيل إليه أنه أمام دودة حقيرة منهومة فرغت لتوها من التهام قوقعة لم تبق منها غير الصدف ، ثم انسربت تبحث عن نزيل ميسور تملأ به ما بقي في بطنها من فراغ .

وسألها عما إذا كان لديها غرفة للايجار .

فأجابت ربة البيت بصوت ينبعث من حنجرة مبطنة بالفرو : «توجد حجرة خلفية بالطابق الثالث ، خلت منذ أسبوع ، أفتريد أن تلقى عليها نظرة ؟»

وتبعها الشاب في السلم ، وكان به بصيص خافت من النور لا يعرف مصدره ، يطامن من ظلمة الردهات ، وعليه بساط بلغ به سوء الحال حتى لينكره النول الذي نسج عليه ، فقد بدا وبره كأنما استحال إلى عشب . وكأنما بلى هذا العشب وتحلل ، وزحف منه العث والطحلب إلى خشب السلم ، فاستحال إلى مادة عضوية لزجة تغوص فيها الأقدام ، وعند كل منعطف في السلم كانت توجد فجوة

في الجدار ، لعلها كانت تستعمل يوما ما قاعدة لأصيص من أصص النبات ، ثم مات النبت في ذلك الجو الآسن العفن ، أو لعلها ، كانت قواعد لتماثيل قديسين ، سطت عليهم الأشباح والشياطين ، فانتزعتهم من قواعدهم في حلك الظلام ، ورمتهم في قبو عفن مفروش . وقالت ربة البيت بصوتها المخملي :

« هذه هي الغرفة . إنها لطيفة وقلما تخلو من نزيل ، وقد استأجرها بعض العلية في الصيف الماضي ، ولم يشعروا فيها بأية مضايقة على الإطلاق . وكان الدفع مقدما وفي أول دقيقة من أول كل شهر . وتجد دورة المياه في نهاية الردهة ، وقد أقامت بها سبراولز وموني طيلة ثلاثة أشهر وأقاما بها عرضا موسيقيا فكاهيا ، ولابد انك سمعت بمس بريتاسبراولز ، فذلك هو اسمها في المحيط الفني . ومن فوق هذا الصوان كان عقد زواجهما معلقا في اطار . وهنا تجد الغاز ، وكما ترى توجد أكثر من خزانة في الجدار . . إنها غرفة تنال اعجاب الجميع وقلما تخلو من ساكن .

وسألها الشاب :

– « هل يتردد على بيتك كثير من الممثلين . . ؟ »

فأجابت ربة البيت :

– إنهم يذهبون ويجيئون . فأغلب عملائي ينتمون إلى الوسط المسرحي . ولعل السيد يعلم أن هذا هو حي المسارح . والممثلون بطبيعتهم لا يصبرون على بيت واحد ولا يمكثون في البيت إلا لأمد قصير . ولا شك أنني أستفيد من ذلك . . نعم انهم يذهبون ويجيئون .

ورضى الشاب عن الغرفة ودفع مقدما ايجار أسبوع ، ورغب في ان يشغلها لساعته ، فقد كان متعبا مكدودا كما قال . وقالت ربة الداران الغرفة على أتم استعداد لا ينقصها شيء ، حتى المناشف والماء . .

وعندما همت بالانسحاب عاد يسألها للمرة الألف ذلك السؤال الذي تعلق بطرف لسانه :

– « هل مرت بك فتاة في مقتبل العمر تسمى مس فاشنر ؟ مس الوازفاشنر ؟ ألا تذكرين مثل هذا الاسم بين نزلائك ؟ انها في الأغلب مغنية مسرح ، وهي جميلة متوسطة الطول ، نحيفة القوام ذهبية الشعر ، في جبينها بجوار الحاجب الأيسر شامة سوداء » قالت ربة البيت :

– « كلا لا أذكر مثل هذا الاسم . ان أهل الفن كثيرا ما يعمدون إلى تغيير أسمائهم بنفس السرعة التي يغيرون بها مساكنهم . انهم يذهبون ويجيئون . كلا

لا أتذكر هذا الاسم . . »

***

لا ، ودائما لا . إنه لم ين طيلة خمسة شهور عن البحث والاستفسار ، لا يتلقى إلا نفس الجواب . لقد كان يستغل النهار طوال هذه المدة ، يسأل عنها المدربين ووكلاء المسارح ، ومدارس التمثيل وبين نكرات المغنيات ، ويقضي الليل مندسا بين جماهير النظارة في المسارح على مختلف درجاتها ، ثم ينحدر إلى المراقص الوضيعة ، وأخشى ما يخشاه أن يجد هناك تلك التي فاق حبه لها كل شيء واستيأس من العثور عليها ، رغم يقينه الجازم بأنها تختفي في مكان ما ، لا يعدو نطاق تلك المدينة الضخمة ، التي هي أشبه ما تكون بمستنقع هائل من الرمال الخداعة لا تنفك ذراته تتحرك على الدوام إلى غير قرار ، ما يعلو السطح منها اليوم يندفن غدا في ذلك التيه من الوحل الخاتل الرهيب .

واستقبلت الغرفة آخر نزلائها في كرم زائف ، وحفاوة محمومة شاحبة متكلفة ، كابتسامة عريضة على شفتي بغي . وانعكست عليه أشعة متعة وهمية من الأثاث البالي ، والأغطية المهلهلة على الأريكة والكرسيين العتيقين ، والمرآة الرخيصة المضلعة القائمة بين النافذتين لا يزيد عرضها على قدم ، واطار أو اطارين مموهين بماء الذهب ، وسرير من النحاس الأصفر في ركن من أركان الغرفة .

وجلس الضيف على أحد المقعدين منهكا يستمع إلى همهمة الغرفة التي ازدحمت بالمعاني والمشاعر كأنها خلية من خلايا برج بابل ، وهي تروي له في حديثها المشوش عن روادها المتنافرين .

كانت أرض الغرفة مغطاة ببساط تعددت ألوانه حتى بدأ في وسط الكنار الذي يحيط به من الحصير القذر ، كجزيرة مدارية مستطيلة ، موشاة بالزهر ، في وسط بحر لجى من الأوضار . وعلى الحائط المغطى بالورق الفاقع الألوان ، تدلت تلك الصور التي لا تفتأ تطارد من لا بيوت لهم ، من مكان إلى مكان : عشاق الهيجونوت ، المعركة الأولى ، الفطور ، الروح على حافة الينبوع ، وبدا رف الموقد مثلما بستر وقح ، ينسدل عليه في فوضى ، كزنار راقصات الأمازون . وقد رصت فوقه أشياء أشبه ما تكون بحطام سفينة غرقت في أليم ، وألقى اليم بعض حطامها على الساحل : أصيص حقير أو أصيصان ، صور ممثلات ، قارورة دواء ، بطاقات من ورق اللعب بعثرت في غير ترتيب .

وكما تنضح أحرف الشفرة عندما تحل رموزها ، أخذت المعالم التي تخلفت عن موكب النزلاء على هذه الغرفة تتجلى واحدا أثر واحد ، حتى يتألف منها معنى

مفهوم .

فتلك الرقعة من البساط التي تجردت من الوبر أمام خزانة الملابس تتحدث عن عدد كبير من الغانيات الفاتنات . وهذه البصمات الرقيقة على الحائط تشير إلى أولئك الأطفال الصغار الذين تحسسوا طريقهم في هذا السجن بحثا عن الشمس والهواء . وتلك البقع التي تنبعث أشعتها ، كأنها صور لقنابل تنفجر ، تشهد أن كؤوسا أو زقاق خمر قد تحطمت بما فيها على الجدران . وعلى صفحة المرآة المضلعة نقشت أحرف مهتزة تتكون منها كلمة «ماري» بقلم من الماس ، ويد يترنح صاحبها من السكر . ولم يعد خافيا أن توالى النزلاء على هذه الغرفة ، كثيرا ما جرهم إلى الثورة ، تحت وطأة تلك الكآبة المزدهرة التي تفوق كل احتمال ، فراحوا يصبون نقمتهم صبا على كل ما وجدوه ، ففي قطع الأثاث كسور ورضوض ، والأريكة تداعت زنبركاتها ، واستكانت كثور هائج ، ذبح في ثورة غضب ألوت بحلم ذابحيه ، ولم تسلم صفحة الرخام التي تغطي رَف الموقد من هذا الغضب الشامل ، فانصدع منها جزء كبير . وحتى أرض الغرفة بدت على كل لوح من ألواحها ملامح الاستغاثة المعولة ، من عذاب موبق أصاب كلا منها على حدة ، في وقت أو آخر . ولما لم يكن من المعقول أن يكون كل هذا الحيف والتخريب الذي أحاق بالغرفة ، قد وقع كله عفوا من أولئك الذين آوتهم يوما من الأيام ، فلا بد أن بقية من بقايا غريزة المأوى التي خدعت نفسها ، قد ظلت حية في نفوسهم ، تؤجج حقدهم على هذه الآلهة الزائفة التي تدعى ربة الدار . وما أجمل أن يرى المرء نفسه ربا ولو لكوخ متواضع يكنسه ، ويحبه ، ويرعاه!

ظل الشاب في مجلسه ، يدير في خلده هذه الخواطر ، والبيت من حوله يئز ويعبق بالأصوات والروائح النفاذة منبعثة من الغرف المفروشة . فهذه ضحكات من احداها مائعة ، متأودة ، لا تعرف الحياء . وذلك موشح زجر وتأنيب قادم من غرفة أخرى ، وتلك طقطقة «زهر» في أيدي مقامرين ، ومن غرفة رابعة انبعث صوت أم تغنى طفلها الذي أضناه البكاء . ومن فوقه ينحدر صوت أوتار تصحبه دندنة حالمة . ومن هنا أو هناك صرير أبواب ، وهدير قطارات متقطع ، ومواء حزين يصدر عن قط يجثم على السياج ؛ والأنفاس تدخل إلى صدره محملة بعبق البيت الفياح ، كأنه روائح عفن صادر من أقبية تحت سطح الأرض ، امتلأت بالخرق والأقذار والخشب البالي في الأثاث الطرب المؤوف .

ثم طافت بالغرفة فجأة نفحة من نفحات النرجس الحلوة ، وانتشر عبيرها في قوة وعزم ، فانتفض الشاب صائحا :

« ماذا يا عزيزتي ؟ »

نهض من مجلسه يتلفت يمنة ويسرة ، وكأنما يسمع شخصا يناديه ، والعطر السخي لا ينفك يطارده ويحيط به من كل صوب ، فيمد ذراعيه في الهواء في اضطراب ، ولكن كيف يمكن أن يكون للعطر نداء يجزم المرء جزما بأنه يناديه ؟ ألعله صوت - لا عطر - ذلك الذي مسه وعانقه واحتواه ؟

وصرخ مرة أخرى :

- « لابد أنها ترددت على هذه الغرفة . .! »

وراح يبحث عن أثر ما يهديه ، فقد كان واثقا أن أقل هنة منها ، أو شيء لمسته يدها ، سيعرفه لا محالة . إن عطر النرجس الذكي هو عطرها الأثير ، الذي اصطفته لنفسها وفضلته على سواه ، فمتى نفح ، ومن أين جاء ؟ .

إن الغرفة كانت مرتبة ولكن في غير نظام ، فعلى غطاء صوان الملابس الرث تناثرت ستة من دبابيس الشعر ، نحاها عنه ، فما فيها ما يدل على امرأة بعينها ، وهي صواحب كل امرأة ، مشاع بينهن ، تتشابه بلا فارق ، ولا تشير إلى زمان . وانتقل إلى الأدراج فعثر في أولها على منديل صغير مهمل رث ، لم يكد يضعه على أنفه حتى رماه إلى الأرض ، جزوعا من تننه وسوء مخبره . وعثر على الثاني على أزرار غريبة ، وبرنامج رواية مسرحية ، وصك رهون ، وقطعتين ضالتين من الحلوى ، وكتاب في تأويل الأحلام!!

وفي الدرج الأخير صادف مشطا لماعا أسود مما يصفف به شعر النساء ، فوقف لحظة أمامه مبهوتا كالواقع بين الثلج والنار ، ولكن المشط الأسود اللماع كذلك ، شأنه شأن دبابيس الشعر لا يدل على شيء ، مشاع بينهن جميعا . وأخذ يذرع الغرفة رائحا غاديا ككلب من كلاب الصيد ، يجثو على ركبتيه ويديه ، ويتنسم الجدران والأركان ، لا يترك رفا ، ولا نضدا دون تنقيب ، ولا يسلم من يديه اطار أو ستار ، حتى خزانة الشراب ، ومع ذلك فلم يهتد لها على أثر . انه يتبين وجودها بجانبه ، وفي ريحه ، وحوله ومن فوقه ، ملاصقة لها ، مدللة إياه ، وللمرة الثانية يجيبها بصوت مسموع : « نعم يا عزيزتي » . ثم يتلفت حوله فلا تقع عينه إلا على هواء ، لأن عبق النرجس الذي تناديه منه هيهات ان يخلق جسدا ولونا ، وهوى ، وأذرعا تشتهي العناق .

وعاود البحث في الشقوق والأركان فوجد بعض سدادات الزجاج ، وبعض أعقاب السجائر ، فنحاها باحتقار ، وعثر في ثنية من ثنايا الحصير على سيجار بقي نصفه ، فدهسه تحت نعله ولسانه يهدر باللعنات . وغربل الحجرة من أولها

إلى آخرها ، فلم يجد أثرا لتلك التي أشقاه البحث عنها ، والتي لا يبعد أن تكون سكنت هذه الغرفة ، والتي يبدو أن روحها ترفرف في هذا المكان!

وتذكر ربة البيت فجأة ، فغادر من فوره غرفته المليئة بالأشباح ، واتجه نحو باب ينبعث منه شعاع من الضوء في حجرة ربة البيت ، وطرق الباب ، فخرجت إليه ، فسألها وهو يجاهد في اخفاء انفعاله :

- «هل تتكرم سيدتي بافادتي عمن احتل غرفتي قبلي . . ؟ »

- «بالطبع يا سيدي ، وأقولها مرة أخرى . . إن أسلافك هما سبراولز وموني ، وكما قلت من قبل ، كانت مس برتا سبراولز تعرف في المسرح بهذا الاسم ، ولكن اسمها هنا كان مس موني . إن بيتي محترم معروف بطيب السمعة ، ولقد كان عقد زواجهما معلقا في أطاره على مسمار في . . . »

ولم يدعها تكمل ، فقاطعها قائلاً :

- «من أي نوع من أنواع النساء مس سبراولز ، أعني من حيث الشكل بطبيعة الحال ؟ »

- «كان شعرها فاحما ، وكانت قصيرة القامة ، ممتلئة . . ذات وجه مضحك . . وقد انصرفت هي وزوجها منذ أسبوع في يوم ثلاثاء . .

- «ومن كان يستأجر الغرفة قبلهما ؟ »

- «سيد كان يعيش فريداً أو يشتغل بأعمال النقل ، وتركها مدينا لي بأجر أسبوع ، وسكنتها قبله مسز كراودر وطفلاها الاثنان ، فأمضت بها أربعة شهور ، ثم المستر دويل ، وكان شيخا يعوله ولداه ، وقضى بها ستة أشهر ، وهذا يردنا إلى عام . . وقبل ذلك لم أعد أتذكر . . »

وشكرها وقفل راجعا إلى حجرته ، وكانت في صمت القبور ، ولم يعد بها أثر لذلك العطر الذي ملأ أرجاءها حياة ، فقد اختفى أريج النرجس تماما ، وحل محله نتن الأقبية الطربة ، وأثاثها البالي المؤوف ، وجوها الآسن المكتوم .

وغيض هذا الفيض من آماله المنهارة ما كان في نفسه من ثقة وايمان ، فارتمى في مقعده شاخصا إلى مصباح الغاز ذي اللهب الباهت . وما لبث أن اتجه إلى السرير ، فمزق ملاءته قطعا رفيعة ، واستعان بنصل مديته على أن يسد بها شقوق النوافذ ، وفروج الباب . فلما استوثق من كل شيء أطفأ اللهب ، ثم فتح الغاز على آخره ، وسجى نفسه قرير العين على السرير .

الفهرس

مطابع الأهرام ٦ أكتوبر - التجارية - مصر



و. هنرى (1910/1862) كاتب أمريكى ينتمى إلى طائفة الكتاب الصعاليك الذين نشأوا فى بيئات فقيرة.. وواجهوا مصاعب جمة وتنقلوا بين أعمال تافهة. موظفا فى مخزن للأدوية. ورساما فى مصلحة حكومية وناشر لمجلة فكاهية. وصرافا فى بنك. يختلس بعضا من عهدته فيقدم إلى المحاكمة ويهرب إلى أن تضبطه لشرطة. فيدخل السجن. وفى زنزانته يبدأ وهو فى الأربعين كتابة قصصه القصيرة. وبعد سنوات من خروجه يبدأ فى نشرها. ليصبح خلال السنوات الثمانى التالية. كبر قصاص مقروء فى أمريكا.. لأن أحداثها كانت تدور فى الأزقة المنسية والغرف المفروشة فى أحقر الأحياء.. وتقدم نماذج بشرية تنتمى لأمريكا الأخرى! وفى هذه المجموعة نماذج من عالم القاص الصعلوك الذى صعد إلى القمة.. وهو فى الأربعين.. ولم يعش فوقها سوى ثمانى سنوات.. غادر الدنيا بعدها.